الأمير الأحمر

أحمد الجيلاني



للنشر الالكتروني

الأمير الأحمر

أحمد الجيلاني





تصميم

غلاف : بيسان بيسو

داخلي : دينا الشعراوي

تعبئة ورابط إليكتروني : أماني محمود

فريق عمل



للنشر الإليكتروني



الأمير الأحمر

بقلم

أحمد الجيلاني

التدقيق اللغوي: محمد أحمد فؤاد

المراجعة النهائية: هند محمود

تنويه هام

معظم الشخصيات الواردة في هذه الرواية شخصيات حقيقية، والأحداث الواردة فيها جميعها مبنية على أحداث حقيقية وقعت بالفعل بين أبطالها.

إهداء

أهدي هذه الرواية إلى المرأة التي دومًا ما غمرتني بحبها وحنانها منذ أن بدأت أعي ما حولي، بل قبل ذلك بكثير، ساندتني في كل أحوالي، مريضًا كنت أم صحيحًا، فرحًا كنت أم حزينًا، وفور علمها بما أحلم به وأربو إليه، لم تبخل عليَّ بأي شيء في سبيل تحقيقي هذا الحلم، الذي لولا وقوفها إلى جانبي بعد الله، ما كنت استطعت أبدًا أن أخطو أولى خطواتي في تحقيقه.

لذا، ولكل ذلك وأكثر، أهديكِ يا أمي أول أعمالي.

ابنك: أحمد الجيلاني



شكر وتقدير

♥ للأستاذ "فريد الفلوجي" مؤلف كتاب (حراس الهيكل: عمليات الموساد الخارجية في نصف قرن [الاغتيالات])، الذي استوحيت منه فكرة الرواية واعتمدت عليه كأحد مراجعي.

♥ لمؤسسة مؤرخي مصر للثقافة "المجموعة ٧٣ مؤرخين"، الذين اعتمدت اعتمادًا كبيرًا جدًّا على ما قدموه لي من معلومات في ملف العميلة "أمينة المفتي".

♥ للسيدة "حنين بوظو"، التي ساعدتني كثيرًا في معرفة كثير من تفاصيل الحياة اليومية لدى الشعب الفلسطيني.

♥ لعائلتي وأصدقائي الذين قدموا لي كثيرًا من الدعم المعنوي كي أتمكن في النهاية من الوصول إلى ما وصلت إليه، وأخص منهم بالذكر: الأستاذ "عمر القربى" والأستاذ "أحمد مرزوق" و"مازن علي".

(1)

الحلم

بعد أن دقَّت الساعة الحادية عشرة صباحًا، استيقظ علي حسن سلامة -الذي كان قد تجاوز العشرين من عمره في ذلك اليوم بِعَّدِة أعوامٍ قليلة- من نومه على إثر دقات الساعة، ليجد غرفته مرتبة كما تعوَّد دائمًا أن يتركها، فهنا مكتب الدراسة الذي اعتاد قضاءَ ساعاتٍ طويلةٍ عليه خلال مدة الثانوية والإعدادية قبل دخوله كلية الهندسة بالجامعة الأمريكية ببيروت، وهناك خزانة ملابسه، وأدواته القابعة بجوار سريره الذي استيقظ من عليه.

ولكن ما كان غريبًا ولافتًا للانتباه في ذلك اليوم بحق، هو السكون والظلام اللذان غطيا المكان بأكمله، اللهم إلا من نورٍ خافتٍ جدًّا في المكان ساعده على رؤية ما حوله.

في البداية اعتقد "علي" أن الكهرباء مقطوعة عن المنطقة بأسرها، ولكن مهلًا، فالشوارع أيضًا لا يوجد بها نور، فهل من الممكن أن تكون الساعة بها عطل ما، وبدلًا من أن تدق في ميعادها المعتاد، دقت قُبَيل الفجر؟

احتمال وارد لم يشغل بال "علي"، خرج على إثره من غرفته متجهًا إلى خارج المنزل، ليجد المفاجأة التالية في انتظاره، فبمجرد خروجه إلى الشارع، وجد المنطقة بالكامل خالية من أي كائن حي عَداه، كما لو كان قد سبقه وباءٌ خلَّف وراءه كلَّ مَن بالمدينة من كائناتٍ حيةٍ قتلى عَداه، مما زاده استغرابًا.

وبخطواتٍ متثاقلة، سار "علي" في شوارع بيروت الساهرة متجولًا بين أركانها كما لو كان في مسار عكسي لمسار حياته، فهنا الجامعة الأمريكية ببيروت حيث تقع كلّيته، وهناك المدرسة الثانوية ومِن بعدها المدرسة الإعدادية، اللتان قضى فيهما مرحلة ما قبل الجامعة، وهناك منازل أصدقائه الذين عوضوه عن مرارة الغربة ووحشة الوحدة.

وفجأة ودون أي مقدمات، أتت رياح قوية بدأت تعصف بالمدينة بأكملها مصحوبة بهزات أرضية شديدة، أحالت كل ما حوله إلى سراب، استبدل في الحال بمنطقةٍ ريفيةٍ حيث وجد "علي" نفسه جالسًا على الأرض، ولذا كان من الطبيعي، بعد أن وقف على قدميه ونفض عن نفسه ما

تعلق بملابسه من تراب وطين، أن يبدأ في استكشاف تلك المنطقة الجديدة.

كان أول ما لاحظه "علي" في تلك المنطقة هو سطوع الشمس في منتصف السماء، ما يعني أنه في منتصف الظهيرة أو قارَب على ذلك، والأراضي المزروعة فيها ممتدَّة على مرمى البصر، وكذا الحيوانات والماشية موجودة في كلِّ ركنٍ أينما ذهب.

ولمدةٍ قاربت الساعة، سار "علي" في تلك الأرض في وحدةٍ لم يؤنسه فيها سوى خوار البقر ونهيق الحمير ومواء القطط ونباح الكلاب، محاولًا معرفة أين هو، أو البحث عمن يجيبه عن سؤاله، إلى أن وجد في النهاية رجلًا في العقد الرابع من العمر ممتلئًا قليلًا، جالسًا بالقرب من

ساقية مرتديًا الكوفية والعقال، ذلك اللباس الذي دائمًا

ما امتازبه الفلاحون في القطرالفلسطيني، وكذا الثوار

الفلسطينيون في خلال الثورة الفلسطينية الكبرى. إذ

اعتاد "علي" رؤيته في صغره، فتوجه إليه على الفور

لسؤاله قائلًا: يا خال، إذا سمحت لي بالسؤال، أين أنا؟

وما الذي أتى بي إلى هنا؟

الرجل: ألا تعرف مدينتك يا علي؟

"علي" متعجبًا: مدينتي؟ ماذا تقصد بكلامك؟ ومن تكون؟

الرجل متسائلًا: هل حقًّا لا تعرف أين أنت ولا من أكون؟

"علي" متعجبًا: ولماذا أكذب عليك؟

الرجل: انظر حولك جيدًا، ألا تتذكر هذا المكان؟ إنك تقف الآن حيث نشأت، إنك في ريف قولة قضاء اللد بقلب فلسطين.

ثم استكمل الرجل حديثه قائلًا: أما عن سؤالك الثاني بمن أكون، فإني والدك حسن سلامة.

وما إن عرف "علي" أنه في مواجهة والده، حتى ردَّ عليه غاضبًا: وماذا تريد مني الآن؟ ألا تعرف أنك سبب أكبر مشكلة عانيتها وما زلت أعانيها في حياتي؟

الشيخ "حسن" وعلامات القلق والتعجب قد غطت وجهه: أنا يا بني؟! وكيف ذلك؟

"علي": بل قل، وكيف لا يكون ذلك؟! فمنذ أن بدأت أعي ما حولي في هذه الدنيا البائسة، وكل مَن حولي يطالبوني

ليل نهار بألَّا أفعل أي شيء في حياتي إلا أن أدور في فلكك وأكون نسخة منك، فأمي تطالبني بأن أثأر من قاتليك، وبصورة يومية وبلا توقف تحكي لي ما فعلته في حياتك من أعمال مجيدة وانتصارات عظيمة. حتى طفولتي لم أعِشها بصورة طبيعية، لأني كان لا بد لي من أن أتبع نماذج محددة في الأسلوب والسلوك، وكلما قابلني أحد كان عليه تذكيري بأنني ابن المجاهد حسن سلامة، ولا بد أن أسير على نهجه، على الرغم من أن أحدًا لم يقل لي قط كيف كان يعيش حسن سلامة.

شعر الأب بالشفقة على حال ابنه، ولتجاوُز ثورة غضبه، سأله باسمًا: حسنًا يا بني، دعنا من الماضي، فلا فائدة من الحديث فيه، فكما قال القدماء: "الحديث في الماضي

نقصان عقل". حدثني الآن عن حياتك، كيف تقضيها؟ وماذا أنت فاعل فيها؟

"علي": كل ما أريده الآن هو الاستمتاع بحياتي، أسافر هنا وهناك وأسهر و أتعرف على أصدقاء جدد، لا يهم إذا كانوا جيدين أم سيئين، المهم أن أقضي حياتي بعيدًا عن أي صراعات لا ناقة لي فيها ولا جمل.

الشيخ "حسن" والصدمة تعلو وجهه: فقط! هذه هي حياتك؟

"علي" مستهجنًا: أليس أفضل من أن أموت في زهرة شبابي ولا أنال من الدنيا شيئًا؟!

الشيخ "حسن": يا بني {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}.

"علي": وماذا أنجزت في حياتك أو حتى بمماتك؟ هل حررت الأرض و أنقذت العِرض؟ هل انتصرت على العدو وأمَّنت المروعين والنازحين؟ الإجابة لا.

الشيخ "حسن": يا بني، إننا كبشر لسنا مطالبين في حياتنا بتغيير المعادلات وتحقيق النصر في الحال، و إنما مطالبون بالسعي والاجتهاد قدر الإمكان، أما عن النتيجة، فتلك في عِلم المولى عَزَّوجلَّ ولا أحد سواه، يحدد موعدها متى يشاء. يا بني، إن حياتنا أشبه بسباق تتابع، وكل جيلٍ يسلِّم الآخر، فلا تُضِع ما حققه أسلافك في حياتهم، ولا تضرب بتضحياتهم عرضَ الحائط.

"علي" وقد ارتسمت على وجهه ملامح الغضب الممزوج بالحزن والحيرة والحسرة والقهر: أما كُتبت علينا الراحة أبدًا؟

الشيخ "حسن": بالطبع لا.

صُدِم الابن من قول والده الذي لم يُعِره اهتمامًا مكملًا حديثه قائلًا: إن ربك يقول في كتابه العزيز{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}، فالراحة يا بني في هذه الحياة ما هي إلا سرابٌ يسعى البشرُوراءه طوال حياتهم ليواجهوا في النهاية الحقيقة الوحيدة في حياتهم ألا وهي الموت. لذا، نصيحتي لك ألا تهدر حياتك في التمتع بمتاع الدنيا الزائلة، وإن كنتُ لا أنهاك عن ذلك، فهذا حقك ما دمت لم تغضب ربك، ولكن تذكر دائمًا أن عليك مسئولية

تجاه أمتك ودينك، و أنك سوف تُسأل عما فعلته في دُنياك للدفاع عنهم وإعلاء شأنهم، فحضِّر نفسك يا بني جيدًا للإجابة عن ذلك السؤال.

وبمجرد إنهاء الشيخ "حسن" حديثه، أخذ في التلاشي شيئًا فشيئًا حتى أُحيل سر ابًا، ليحل محله بعد دقائق صوت طفلة من بعيد، بدأت تنادي على "علي"، وبمرور الوقت راح الصوت يقترب ويشتد رويدًا رويدًا حتى تجسدت صاحبته أمامه، ليجدها أخته "نضال" ذات التسعة أعوام، بوجهها الملائكي وضفيرتها السوداء الناعمة المتدلية من كتفها اليمنى.

وشيئًا فشيئًا بدأ "علي" في فتح عينيه واستعادة وعيه، ليجد أخته "نضال" جالسة فوق رأسه تهز جسده برقة



شديدة لإيقاظه كما رآها في الحلم تمامًا، دون أدنى تغيير، في حين تدق الساعة فوق رأسه معلنةً عن تمام الحادية عشرة صباحًا.

في تلك اللحظة، نهض "علي" من سريره مفزوعًا، معتقدًا أن ما كان فيه من دوامة وصراع لم ينتهِ بعد، ولكن بعد أقل من دقيقة من رؤيته غرفته وتفحصه إياها، تأكد أنه هذه المرة في غرفته حقًّا، إذ كان كافيًا له رؤية نور الشمس مخترقًا غرفته، واستنشاقه رائحة الفلافل الطيبة المذاق الممزوجة برائحة مناقيش الزعتر بزيت الزيتون الشهية، التي دومًا ما اعتادت والدته تحضيرها في هذا الوقت من الصباح، للتأكد من أنه لم يعد داخل ذلك الحلم بعد، عندها استلقى مرة أخرى على سريره، وأغمض عينيه طلبًا للراحة التي لم يذقها في منامه.

لكنه ما كاد يفعل ذلك حتى قفزت فوقه أخته "نضال" قائلة له بغضبٍ شديدٍ ممزوجٍ ببراءة الأطفال: علي... علي... استيقظ، هل نمت مرة أخرى؟ إنني جائعة وأمي تحضر الطعام، وقالت لي أنني لن أتناول طعامي ما لم أجعلك تستيقظ.

حينها ابتسم "علي" بشدة على ما قالته أخته، فنهض من سريره، وقال لها مبتسمًا: حسنًا، اذهبي إلى أمي، وأخبريها أنني قد استيقظت.

وعلى الفور، نهضت "نضال" من فوقه منطلقة نحو أمها وهي في قمة سعادتها، كمن حقق نصرًا مؤزرًا في معركة مصيرية، قائلة لأمها: أمي... أمي، لقد جعلت عليّ يستيقظ كما أمرتني.

فضحك "علي" مما قالته أخته، وأخذ في النهوض متثاقلًا للذهاب إلى الحمام لقضاء حاجته والاستحمام. وفي طريقه إلى الحمام، مر على أمه التي كانت منهمكة في طهي الفلافل الفلسطينية الشهيرة، وكذا إعداد بقية أصناف الطعام لها ولأبنائها، فألقى عليها التحية، فردت عليه أمُّه بمثلها.

كانت أمه متوسطة الطول، في منتصف الأربعينيات، وإن كانت تبدو أكبر من ذلك بسبب ما شهدته في حياتها وشبابها من أهوال ومصاعب جعلتها تشيب قبل الأوان، لكنها في الوقت نفسه كانت ذات شخصية قوية ساعدتها كثيرًا على تخطي تلك المصاعب بأقل الخسائر الممكنة، وفيما عدا ذلك لم تكن تملك من الصفات ما يزيد عما

امتلكته ربات البيوت الفلسطينيات اللواتي عشن في المهجر.

وبمجرد أن أنهى "علي" حاجته من الحمام وخرج منه، نادته أمه قائلة: علي... علي، أسرع لتتناول وجبة فطورك قبل ذهابك إلى الجامعة.

علي: حسنًا يا أمي، أنا قادم.

وبالفعل، تقدم "علي" خلال الممر الواصل بين الحمام والمطبخ وغرفته وغرف أخته وأمه، وصولًا إلى الصالة القابعة بالركن الشمالي منها طاولة السفرة، حيث جلس الجميع لتناول فطورهم.

وقد كانت صالة المنزل منظمة ومرتبة، شأنها في ذلك شأن أركان المنزل كافة، وإن كانت امتازت عنهم بكثرة ما علق

على جدرانها من أعلام ولوحات، ففي الجدار الشمالي للصالة والمجاور لطاولة السفرة عُلِّقت صورة من ذوات الحجم الكبير بالأبيض والأسود لرجلٍ في العقد الثالث من العمر، ممتلئ الجسد، ذي لحية وشارب خفيفين، وملامح وجه تجعله يبدو أصغر من سنه الحقيقية، مرتديًا فوق رأسه الغطرة البيضاء المثبتة بإحكام بالعِقال الأسود المصنوع من صوف الماعز، في حين ارتدى على جسده عباءة بيضاء مغطاة ببشت أسود اللون. كان ذلك الرجل هو والد "علي" الشيخ "حسن سلامة"، وقد التقطت له هذه الصورة في أثناء وجوده بالعراق في المدة (من 1939 إلى 1944م). في حين علق في الجدار المقابل صورة كاملة لخريطة فلسطين من البحر إلى النهر،

ويعلوها علم فلسطين المميز ذو الألوان الثلاثة؛ الأسود والأبيض والأخضر، والمطعَّمة بالمثلث الأحمر.

جلس الجميع حول طاولة السفرة لتناول وجبة الإفطار، التي كانت عبارة عن فلافل فلسطينية وعيش شامي ومناقيش الزعتر بزيت الزيتون، كما توقع "علي" تمامًا، مضافًا إليهم الفتُّوش والمسبحة كمقبلات. وبعد أن تناول الجميع قسطًا من وجبتهم، بدأت الأمُّ الحديثَ بسؤال ابنها قائلة: كيف حالك يا علي في دراستك الجامعية؟

"علي": الحمد لله بخير حال.

صمتت الأم قليلًا لتتناول بضع قضمات من فطورها، ثم أكملتْ حديثَها قائلة: بالمناسبة، اليوم سوف يحضر إلى



منزلنا كلٌّ من السيد "ياسر عرفات" والسيد "أبو إياد"

والسيد "أبو صالح" وأريدك أن تكون حاضرًا.

عندها أدرك "علي" أن أمه سوف تحدثه في رغبتها بجعله

ينضم إلى المقاومة، لذا سعى إلى إنهاء هذا الحديث بأسرع

ما يمكن، فنظر إلى الساعة المواجهة إلى المائدة ثم قال:

حسنًا يا أمي، كنت أتمنى أن أتمِّمَ معكِ هذا النقاش

الشيق، لكنني مضطر الآن إلى الانطلاق سريعًا نحو

الجامعة كي لا تفوتني المحاضرات.

ثم قبَّل يد أمه ورأس أخته "نضال"، و انطلق سريعًا نحو

الباب.

الأم بلهفة شديدة: لكن، ألن تكون حاضرًا في أثناء وجود

الضيوف؟



"علي": بالتأكيد يا أمي، ولكن عليَّ الإسراع الآن، متى سوف يأتون؟

الأم: الساعة الخامسة مساءً.

"علي" وهو أمام الباب: قبل ذلك -بإذن الله- سوف تجدينني حاضرًا.

وما إن أغلق الباب حتى أخذ نفسًا عميقًا كما لو كان قد نجا من الموت، وكيف لا وهو قد نجا اليوم من النقاش الذي تغرقه به والدته يوميًّا، لينطلق بعدها إلى منزل مصعب.

ولكن من يكون هذا الشخص المدعو مصعب؟

(2)

حوار مع صديق

"مصعب" هو صديق الطفولة، وزميل "علي حسن سلامة" في الدراسة، ويمكننا اعتباره واحدًا من أهم الأسباب التي هونت عليه مرارة الغربة، فهو فلسطيني الأصل، وفي عمر "علي" نفسه تقريبًا. عَرِف بعضهما بعضًا في الأيام الأولى لنزوحهم إلى البنان، ومنذ تلك اللحظة، تشاركا معًا الآلام والآمال وباتا يفعلان كلَّ شيءٍ معًا، حتى في الدراسة بعد انتهاء المرحلة الثانوية، قدما أوراقهما معًا للجامعة نفسها والكلية ذاتها. وعلى الرغم من ذلك الاتفاق الذي كان بينهما، فإن "مصعب" كان على عكس "علي" في مسألة الثورة الفلسطينية، إذ لم

يكن على تواصلٍ مع الثوار فحسب، بل كان في مقدمة صفوفهم.

بعدما أغلق "علي" باب منزله، سار باتجاه منزل صديقه وهو سعيدٌ بهروبه من تلك المناقشة اليومية التي دائمًا ما تتلوها عليه أمه كما لو كانت فرضًا لا بد لها من تأديته يوميًّا، لكن يبدو أن السماء كان لها رأيٌ آخر، إذ أبَت إلا أن تنغص عليه ما تبقى له من سعادة، فأسقطت عليه فجأة ودون أي مقدمات و ابلًا من الأمطار أجبره على الركض سريعًا نحو منزل صديقه الذي كان في مرمى بصره. وبمجرد وصوله إلى المنزل طرق بابه بسرعة، ليفتح له "مصعب" الذي ما إن رأى ملابسه غارقة حتى أدخله بيته للجلوس عنده قليلًا بالقرب من المدفأة كي تجف ملابسه.

كان منزل "مصعب" لا يختلف عن منزل صديقه كثيرًا، ففي المدخل تجد على الحائط المجاور للباب مفتاح منزلهم في فلسطين معلقًا داخل إطار زجاجي، إذ اعتاد الفلسطينيون في المهجر الاحتفاظ بمفاتيح منازلهم التي هدمت في الماضي، وكذا مواثيق ملكيتهم لتلك الأراضي، وذلك للتأكيد على حقهم في العودة إلى بيوتهم وأرضهم وبلادهم مهما طال الزمن.

وبعد الدخول إلى المنزل، تجد على يسارك إطارًا كبيرًا لصورة عائلية بالأبيض والأسود تجمع كلًّا من "مصعب" وأختيه "دلال" و"سماح" ووالده ووالدته، إذ يبدو الأب جالسًا بجوار زوجته مرتديًا العِقال والكوفية الفلسطينية (الزي الذي دومًا ما اشتُهِر وعُرِف به الثوار الفلسطينيون) ومُتدلٍّ من كتفه اليسرى نحو ذراعه

اليمنى حزامٌ به عدد كبير من الذخيرة، أقرب ما يكون في وصفه إلى وشاح القضاة. أما الزوجة، فقد جلست بجواره مرتديةً الزيَّ الفلسطينيَّ التقليديَّ وحاملةً بين يديها ابنتها الصغرى "دلال"، وقد وقف "مصعب" بجوار أبيه ساندًا على مسند الكرسي الجالس عليه، في حين وقفت "سماح" بجوار الأم تداعب أختها الصغرى.

أما في الحائط المقابل، فقد عُلِّقت خريطة لحدود فلسطين الكاملة التاريخية الممتدة من البحر إلى النهر، وفوقها علم فلسطين المميز. وفي نهاية صالة الاستقبال، تقع حجرة الضيوف القابعة بها المدفأة التي جلس بجوارها "علي" كي تجف ملابسه من أثر المطر الذي باغته فجأة.



وبمجرد جلوسه على مقعده القريب من المدفأة، سأله "مصعب" قائلًا: هل تناولت فطورك؟

"علي": الحمد لله، تناولت ما يكفيني.

"مصعب": حسنًا، أستأذنك، أعطِني بضع دقائق ريثما أنتهي من ارتداء ملابسي وتناول ما تبقى من فطوري وسأكون معك، وفي خلال تلك الدقائق تصرف كما تشاء، فأنت لست بغريب.

"علي" باسمًا: بكل تأكيد، و أنا في انتظارك.

وبالفعل، لم يمضِ أكثر من بضع دقائق إلا ودخل عليه "مصعب" حاملًا معه صينية عليها كوب شاي، وضعها على الطاولة التي أمامه، ثم سحب كرسيًّا ووضعه أمامه



وقال له: لقد طلبتُ من أمي أن تحضر لنا كوبين من الشاي لعلمي المسبق بعشقك الشديد له.

"علي" مبتسمًا: شكرًا لك يا صديقي.

وبدأ الصديقان في تناول مشروبهما الدافئ، ومن ثم ساد الصمت بينهما لدقائق معدودة، إلا أن الفضول الذي كان بداخل "مصعب" جعل من المستحيل أن يكون الصمت ثالثهما، لذا بادر صديقه بالسؤال قائلًا: هل حدث معك شيء في المنزل؟

"علي": ليس أكثر مما يحدث معي يوميًّا.

"مصعب" وعلامات القلق بدأت ترتسم على وجهه: هل راودك الحلم نفسه؟



"علي": نفسه، لا جديد فيه سوى بعض التفاصيل الصغيرة، ولكن المضمون هو ذاته.

"مصعب" معقبًا: وأمك؟

"علي": ما زالت في كل مناسبة تحاول أن تقنعني بالانضمام إلى صفوف الثوار.

"مصعب": ولمَ لا تجرب أن تطيعهم في ذلك؟ ربما هذا هو ما يريحهم ويريحك.

فجأة غضب "علي" مما قاله صديقه، فردَّ عليه قائلًا: أرجوك، لا أريد الحديث في هذا الموضوع، وإلا فسوف أغادرك ولن تراني مجددًا.

"مصعب": حسنًا حسنًا، الأمر لا يحتاج إلى كل هذا الانفعال، إنك حقًّا صعب المراس.

ومرة أخرى عاد الصمت رفيقًا لتلك الجلسة، لكنه لم يدم أكثر من عشر دقائق، إذ قطعه "علي" قائلًا: اعذرني يا صديقي، لكن لا يوجد أحدٌ يفهمني بحق، حتى أهل بيتي، ولا أريدك أن تنضم إلى زُمرتهم، فأنت آخر من أستطيع الآن أن أتحدث معه بكل أرْيَحية و أنا مطمئن إلى أنه سيفهمني بحق. يا مصعب إنني لست بخائن ولا جبان لكيلا أنضم إلى الثوار، فلقد هُجِّرتْ وشُرِّدت ويُتِّمت، شأني شأن كل النازحين وقطاع كبير من الفلسطينيين.

لكن أجبني، هل ما يفعله الثوار على الحدود الأردنية مع إسرائيل من عمليات صغيرة عاد بالفائدة على الشعب الفلسطيني بأي صورة من الصور؟

"مصعب" وعلامات الاستغراب تعلو وجهه: عذرًا، لكني لا أفهم السؤال؟

"علي": سأعيد عليك السؤال بصيغة أخرى، هل أعادت تلك العمليات النازحين إلى أراضيهم ومنازلهم التي هُجِّروا منها قسرًا؟ هل ثأرت لقتلانا؟ هل أبرزت قضيتنا ووجودنا للعالم بعد أن نَسِيَنا أو تناسانا بفعل توجيه اللوبي الصهيوني حول العالم؟ الإجابة لا، بل على العكس، بعد كل عملية نصبح نحن الإرهابيين وهم الضحايا.

"مصعب": وما هو الحل من وجهة نظرك؟

"علي": ما لم يُنفِّذ الثوار عمليات كبيرة تزلزل ذلك المحتل من أساسه وتبرز قضيتنا للعالم، فكل ما يفعلونه -من وجهة نظري- ما هو إلا إهدار للمال والطاقات والوقت والأنفس، وما دمنا لا نستطيع أخذ حقوقنا والعدو أقوى منا، فلنعش حياتنا كما نريد ولا نُضِعها في قضية فاشلة.

حاول "مصعب" تمالك أعصابه كي لا يخسر صديق عمره إلى الأبد، فرد عليه قائلًا: أتفق معك في بعض ما قلت، لكن هل نسِيت قول المولى عزوجل {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ}؟ إن الله يقول {مَّا اسْتَطَعْتُم} وليس (ما يفوق قوة وقدرة عدوكم)! نحن نعلم جميعًا أن ميزان القوة لصالح الكيان الصهيوني في أي مجال، لكننا مأمورون بالسعي وبذل أقصى ما عندنا لتحقيق النصر، والنتائج بيد الله، وليست بيد أحد منا يحدد ميعادها وقتما يشاء وكيفما يشاء.

وما كاد "مصعب" ينهي حديثه حتى تذكر "علي" كلمات والده في الحلم هذا الصباح، وتطابق مضمونه مع ما قاله صديقه للتو، فلم يجد ما يرد به، لذا عمل على إنهاء تلك المحادثة مستغلًا جفاف ملابسه، وكذا انتهاء هطول

الأمطار وبزوغ الشمس مرة أخرى، قائلًا: حسنًا، دعنا نكمل حديثنا فيما بعد ولنهتم الآن بمستقبلنا، وننطلق نحو الجامعة قبل أن تهطل الأمطار مرة أخرى.

فابتسم "مصعب" مدركًا ما يرمي إليه صديقه، فقال له: كما تريد، هيا بنا يا صديقي نحو الجامعة.

وبالفعل، انطلق الصديقان بعد أن سلما على أم "مصعب" وأختيه وودَّعاهُن.

وبعد انتهاء اليوم الدراسي، عاد "علي" أدراجه إلى المنزل، ووجد أن رائحة الطعام التي كانت تملأ المكان في الصباح قد استبدلت فجأةً برائحة العطور الممزوجة بالبخور.

وما كاد يرتاح، حتى دقت الساعة الخامسة مساءً، ومع

آخر دقات الساعة، رن جرس باب المنزل، لتفتحه

"نضال" وتجد في مواجهتها الضيوف.

(3)

ما بين النكسة والكرامة

كان الضيوف الثلاثة يتوسطهم القائد "ياسر عرفات"، وهو قصير وممتلئ، مرتديًا نظارة شمس سوداء، ومغطيًا رأسه بالكوفية الفلسطينية التقليدية. وعلى يمينه "أبو إياد"، وهو متوسط الطول ممتلئ قليلًا عريض المنكبين كثيف الشعر، وعلى الرغم من ذلك توجد نسبة صلع برأسه. في حين كان على يساره "أبو صلاح"، الذي على الرغم من سنه فإن ملامح الطفولة لم تغادر وجهه بعد، الأمر الذي يجعل أي شخص يراه يكون من الصعب عليه تحديد عمره بدِقة.

وبعد لحظات من تأمل الفتاة الضيوف، تعرفت على السيد "ياسر عرفات" نظرًا إلى تردده الدائم عليهم، فما إن رأته حتى قفزت لترتمي في حضنه من شدة فرحها برؤيته قائلة: عمو ياسر... عمو ياسر.

"ياسر عرفات" مبتسمًا: كيف حالك يا حبيبتي؟ وحشتيني.

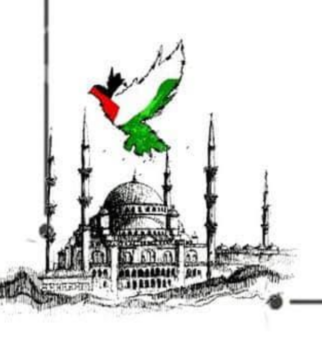
"نضال": الحمد لله، بخير حال.

"ياسر عرفات": هل والدتك موجودة بالمنزل؟

"نضال": أجل.

"ياسر عرفات": إذًا، هل يمكنك أن تخبريها أننا قد وصلنا؟

"نضال": بكل تأكيد.



وبمنتهى السرعة، انطلقت الطفلة راكضة باتجاه حجرة نوم والدتها، لتخبرها بحضور الضيوف الثلاثة وانتظارهم أمام الباب.

خرجت والدتها مسرعة للترحيب بالضيوف، وبعد أن استراح ثلاثتهم من الطريق، جلس الجميع لتناول وجبة المنسف الفلسطينية، وهي وجبة اعتاد الفلسطينيون تقديمها للضيوف. وبعد الانتهاء من الغداء، جلس الضيوف الثلاثة مع "علي" في حجرة الضيوف، في حين وقفت الأم في المطبخ تعد صينية كبيرة للضيوف بها عدد من فناجين القهوة العربية، وبجوارها أطباق من الحلويات الفلسطينية الشهية، التي تنوعت بين المهلبية والجلاش والكنافة النابلسية.



وفي حجرة الضيوف، بدأ "أبو إياد" حديثه مع "علي"، موجهًا سؤاله إليه: و أنت يا عليّ، كيف حالك؟ وكيف حال دراستك في كلية الهندسة؟

"علي": الحمد لله، بخير حال. وبالنسبة إلى الدراسة، فإنني بفضل الله ما زلت محافظًا على ترتيبي ضمن العشرة الأوائل على الدفعة.

"أبو صلاح" مبهورًا: ما شاء الله! وكيف إذًا تقضي أوقات فراغك؟

"علي": لا شيء مميز، شأني في ذلك شأن كثير من الشباب في عمري، أخرج في رحلات ترفيهية مع أصدقائي من آنٍ على آخر، و أقضي أيامي بين المرح والدراسة.

"ياسر عرفات": جميل جدًّا، وهل يا تُرى سمعت من قبل بالثورة الفلسطينية؟

"علي": بالتأكيد، ومن لم يسمع عنها؟!

"ياسر عرفات": إذًا، ما رأيك فيها؟ ألا ترغب بالانضمام إليها؟

"علي": أرجو أن تعفيني من الإجابة على هذا السؤال، لأن إجابتي لن تروق لكم.

"ياسر عرفات": مَن لا يقبل الآخر يا بني، يكون مريضًا بالنقص، تحدَّثْ ولا تخَفْ من شيء.

"علي": باختصار، ما دام لا يُنفِّذ الثوار أعمالًا تزلزل الكيان الصهيوني، واستمروا بعملياتهم التي ينفذونها على

الحدود، فأفعالهم -من وجهة نظري- لا قيمة لها، وما هي إلا إهدار للأموال والطاقات والأنفس والقدرات.

نظر الضيوف الثلاثة بعضهم إلى بعض، وشعر "علي" بأنه -بسبب ما تلفظ به من رأيٍ مخالفٍ لرأي الضيوف- قد تسبب بالإحراج، ليس لنفسه أو لضيوفه فحسب، و إنما لأمه التي وجدها تقف أعلى رأسه حاملةً صينية المشروبات والحلويات المقدمة للضيوف، ولا تعرف ماذا تقول لتبرير ما تسبب به ابنها من إهانة في حق الضيوف، من وجهة نظرها. لذا، وجد أنَّ أسلَمَ حلٍّ للخروج من هذا الوضع هو الانسحاب، فوجَّه حديثه إلى الجميع قائلًا:

أرجو أن تعذروني، فأنا مضطر الآن إلى الاستئذان كي أتمكن من مراجعة محاضراتي.



"ياسر عرفات": حسنًا يا بنيَّ، كما تشاء. لكن أريدك أن تعلم أنه متى عَدَلتَ عن رأيك ورغبت في الانضمام إلى صفوف الثوار فأنت مُرحَّب بك بيننا، فنحن في النهاية أهل، وكل ما نرغب به هو صلاح أمتنا ونصرة قضيتنا حتى ولو اختلفت آراؤنا وأساليبنا.

"علي" مبتسمًا: بكل تأكيد، أستأذنكم الآن، واعذروني مرة أخرى.

وعلى الفور، خرج "علي" مُطأطئًا رأسه متجهًا نحو غرفته، لتبدأ أمه وصلة ممتدة من الاعتذارات للضيوف، إذا ما كان ابنها قد أبدى أيَّ صورة من صور إساءة الأدب أو الإهانة لهم، فسارع "ياسر عرفات" قائلًا: بالعكس يا أم عليّ، إن ابنك كان في غاية الأدب والاحترام في إبداء رأيه.

ثم نظر إلى ساعة يده و أكمل حديثه قائلًا: لكننا مضطرون إلى المغادرة الآن، نظرًا إلى ارتباطنا ببعض الأعمال.

الأم: بالتأكيد طبعًا، لا توجد مشكلة، وأعتذر مرة أخرى إذا ما كان أزعجكم ولدي بأي صورة.

"أبو صلاح" باسمًا: يا أم عليّ، لا حاجة إلى كل تلك الاعتذارات، فنحن في النهاية أهل، وكل ما فعله ولدك هو نقد و اقع نعيشه، وهذا لا يوجد به أي صورة من صور إساءة الأدب.

وبعد أن ودَّع الضيوف أهل المنزل وسلموا عليهم وأغلقوا بابهم، بدأت الأم حديثها مع ابنها وهي في قمة غضبها

وانفعالها: ماذا أفعل معك؟ ألا فائدة فيك أبدًا؟ هل وصل بك الحد إلى إهانة ضيوفنا؟!

"علي" بكل هدوء: يا أمي، لا داعي إلى كل هذا الانفعال، فإن ما جرى كان مجرد نقاش عادي ليس فيه أي صورة للإهانة، وهذا ما قاله الضيوف أنفسهم.

الأم: وماذا تنتظر منهم أن يقولوا؟ أنهم أُهينوا في منزلنا؟! وبماذا تفسر خروجهم مباشرة بعد نقاشك العبقري؟

"علي" وما زالت علامات الهدوء لم تغادر قسمات وجهه: لقد قالوا لكِ يا أمي أنهم مرتبطون بمواعيد أخرى، فلا تُهوِّلي من الأمر، ولا داعي إلى كل هذه العصبية.

ثم قبَّل جبينها، وأكمل حديثه قائلًا: سأغادر الآن للقاء بعض الأصدقاء.

* * *

في الوقت نفسه، ولكن في سيارة القادة الثلاثة، سأل "أبو إياد" "ياسر عرفات" وعلامات التعجب والذهول تملأ وجهه: هل تصدق ما قاله هذا الفتى؟ هل تصدق حقًّا أنه ابن الشيخ حسن سلامة الذي أذاق الكيان الصهيوني والاحتلال البريطاني الويلات تلو الويلات بعملياته؟

"ياسر عرفات" بكل هدوء: ولِمَ لا؟ الفتى لم يقل شيئًا خاطئًا، كل ما أبداه هو مجرد انتقاد للثورة ورغبة منه في تطوير مسارها بما يضمن نجاحها.

"أبو إياد" والتعجب يعلو وجهه: إذًا أنت تتفق مع ما قاله؟

"ياسر عرفات": بكل تأكيد، و إني لأعتقد أنه سوف يكون في المستقبل من أكثر العناصر الفاعلة في الثورة، هذا

فقط إذا ما وقع في المستقبل أمرٌ مَا يحفزه للانضمام إلى صفوفنا.

"أبو إياد" متهكمًا: وكيف ذلك؟

"ياسر عرفات": ذلك ما سوف تحدده الأيام القادمة.

* * *

كان هذا اللقاء في مطلع عام 1965 م، العام الذي أعلنت فيه حركة "فتح" انطلاقتها الأولى، لتمر بعده الأيام تلو الأيام والشهور تتبعها الشهور، إلى أن أتى يوم الخامس من يونيو، ذلك اليوم الذي وقعت فيه نكسة 1967 م، التي بسببها قُصِم ظهر الأمة. ونتيجةً لتلك الحادثة الأليمة والخسارة الفادحة، أعلنت حركة "فتح" انطلاقتها الثانية في عام النكسة، إذ أُعيد تشكيل المجموعات المقاتلة على

الأرض وتنظيمها وتسليحها لتقوم بعمليات مكثفة ضدَّ إسرائيل، ليس على الحدود الأردنية فحسب، بل وفي قلب الضفة الغربية أيضًا، ما دفع عديدًا من الزعماء العرب إلى إبداء إعجابهم بما تفعله منظمة التحرير من عملياتٍ باتت توجع ذلك العدو المحتل. وكان من ضمنهم الرئيس الراحل "جمال عبد الناصر" الذي دعمهم، ليس بالأسلحة والذخيرة فحسب، لكن أيضًا بتنظيم الدورات التي تساعد منفذي تلك العمليات على تطوير أساليبهم وتحركاتهم بما يضمن ارتفاع معدل نجاحهم على الأرض.

وظل الأمر على هذه الحال حتى الحادي والعشرين من مارس عام 1968 م، اليوم الذي وقعت فيه معركة "الكرامة" التي نجح فيها ألفٌ من عناصر الثورة الفلسطينية -بالتعاون مع فرقتين من الجيش الأردني- في

صدِّ هجمةٍ من هجمات قوات الجيش الإسرائيلي، ضمَّتْ بين جنباتها خمسة عشر ألفًا من عناصر الجيش الإسرائيلي، وإجباره على طلب وقف إطلاق النار لأول مرة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، بعد ست عشرة ساعة من القتال الدامي والمتواصل.

وقد كان لتلك المعركة بالغ الأثر الإيجابي على الأمة العربية كاملة، وليس على الفلسطينيين فحسب، وبخاصة أنها تعتبر أول انتصار على إسرائيل منذ وقوع النكسة بما لا يزيد على تسعة أشهر. وبطبيعة الحال، غمرت السعادة البيوت الفلسطينية في لبنان كافة، ومنها منزل "علي حسن سلامة"، لكن يبدو أنه لم يُكتَب لتلك السعادة الدوام، إذ بلغهم خبرُ استشهاد صديقه

"مصعب" بقذيفة مدفعية في أثناء وجوده ضمن قوات الفدائيين المشاركة في المعركة.

كان وقع الخبر كارثيًّا على الجميع، فعند بلوغ أهل "مصعب" الخبر، تحولت فرحتهم الشديدة بالانتصار إلى مأتمٍ ضخمٍ غطت ظلاله أركان الديار كافة، بدأت على إثره أختاه بالنواح والبكاء والعويل حزنًا على فقدانهما أخيهما الكبير ورجل أسرتهما وعائلهما الوحيد، إلا أنه سرعان ما صرخت فيهما أمهما قائلةً وهي صامدةٌ صمودَ الجبال: اخرسا! لا أريد أن أرى أي عويل وبكاء على ولدي. إذا كنتما تبكيان على موته، فاعلما جيدًا أنه لم يمت، وإنما هو شهيد حي يرزق عند رب العالمين. أما إذا كنتما تبكيان على فقدان عائل الأسرة ورجلها الوحيد، فكونا على ثقة مِن أن مَن اختاره دون غيره لنيل شرف الشهادة،

لن يتركنا أبدًا دون أن يطعمنا ويكسونا ويكفينا شر السؤال.

أما عند بلوغ "علي حسن سلامة" وعائلته الخبر ذاته، لم يكن الوضع مختلفًا كثيرًا، اللهم إلا في رد فعل "علي" نفسه، إذ آثر الخروج من المنزل والتجول في شوارع بيروت وحده. إلا أنه كلما خطا خطوة في تلك الشوارع، تذكر مسيراته مع صديقه وحواراته وأحاديثه معه، ومن آنٍ إلى آخر كانت تنهمر الدموع من عينيه بصورة لا إرادية حزنًا على فقدان صديق عمره ورفيق دربه. عندها شعر "علي" أن شوارع بيروت الساحرة الساهرة باتت -ولأول مرة- كئيبة غريبة ولم يعد له مكان فيها، لذا فضَّل العودة إلى منزله علَّه يجد فيه من الراحة والسكون ما لم يجده خارج منزله، إلا أنه بمجرد وصوله ودخوله إليه، شعر بأن

الحزن والكآبة قد غطيا كل ركن من أركان المنزل، وما إن أغلق باب غرفته عليه حتى دخل في حالة، أقل ما يمكن أن توصف به أنها حالة هستيرية من البكاء الحاد، ليست على خسارة صديقه فحسب، بل على كل لحظة ضاعت من عمره لم يستغلها في القضاء على ذلك الكيان السرطاني الذي دائمًا ما أصرَّ على استئصال كل عزيزٍ وغالٍ منه، فلم يكتفِ بقتل والده وتَيْتيمه، بل وسرق منه صديق عمره. لكن تلك الحالة الهيستيرية من البكاء لم تطُلْ، إذ حجَزَ سريعًا تذكرة سفر إلى الأردن، التي يقع فيها مقر"منظمة التحرير الفلسطينية".

ولكن قبل الذهاب إلى منظمة التحرير، كان علَى "علِي" المرور أولًا على قرية الكرامة، إذ وقعت المعركة التي قاتل واستُشهِد فيها صديقه وأخوه الذي لم تلده أمه

"مصعب"، وزيارته حيث دفن. وما إن وصل إلى قبره، حتى قرأ الفاتحة على روحه وأرواح من استشهدوا جميعًا في تلك المعركة، ثم جلس على إحدى ركبتيه، وخاطب صديقه في مثواه الأخير قائلًا: فلترتَح الآن يا مصعب، فقد كنت اسمًا على مسمى؛ عشت بين المصاعب والأهوال وتحملت منها ما لا تطيقه الجبال، ومتَّ بطلًا شامخًا تتعلم من تضحياته الأجيال بعد الأجيال. ارقد الآن في سلام، ولتَدَعْ البقية يكملوا مسيرتك ومسيرة آبائك.

ثم انطلق بعدها نحو مقر منظمة التحرير الفلسطينية، التي ما إن وصل إليها حتى قابله السيد "ياسر عرفات"، الذي بدوره رحَّب به في مكتبه ترحيبًا حارًّا، فسأله "علي" قائلًا: دون أي مقدمات، هل ما زالت دعوتك قائمة؟



"ياسر عرفات" وعلى وجهه علامات الاستغراب: دعوة؟

أي دعوة؟

"علي": دعوتك لي بالانضمام إلى صفوف الثورة

الفلسطينية.

(4)

الدورة الأمنية و أيلول الأسود

في تلك اللحظة، كاد "ياسر عرفات" أن يطير فرحًا، حتى إنه لم يكن مهتمًّا بمعرفة السبب الذي غيَّر قناعاته بهذه الصورة. على الرغم من أن الفضول كاد أن يقتله، فإنه أيقن أن ظنه في هذا الشاب كان في محله، فرد عليه قائلًا: بالتأكيد مكانك محفوظ، وبالمناسبة، إني كنت الآن على وشك إرسال قائمة بأسماء بعض الشباب الذين سيتلقون دورة أمنية في العمل المخابراتي وتنفيذ عمليات التخريب، فإذا أحببت يمكنني أن أضيف اسمك إلى القائمة.

"علي": بالتأكيد يسعدني ذلك.

"ياسر عرفات": حسنًا.

وبعد أن أضاف اسم "علي" إلى القائمة، أرسل في طلب أحد المندوبين لديه لإرسالها على وجه السرعة إلى القاهرة، ثم التفت إلى "علي حسن سلامة" قائلًا: حسنًا يا بني، أمامك -بدءًا من الآن- حوالي سبعة أيام حتى تنطلق إلى القاهرة، لذا أقترح عليك أن ترتاح فيهم وتقضيهم مع أهلك، لأنه -بدءًا من نهاية هذه المدة- سيكون من الصعب عليك لقاؤهم.

"علي" وعيناه يملؤهما الإصرار والتحدِّي: لقد ارتحت عمري كله، وحان الآن أن أعوِّضَ ما فاتني، فلا وقت للراحة بدءًا من الآن.



"ياسر عرفات" والسعادة تملأ عينيه: حسنًا يا بني، كما تشاء.

مرت عدة أيام بعد ذلك اللقاء، كان "علي حسن سلامة" في خلالها موضوعًا تحت نظام تدريبي مكثف للحاق بمستوى قرنائه. وبعد خمسة أيام، دخل عليه "ياسر عرفات" في غرفته ليقول له: جهز نفسك؛ ستسافر اليوم عند منتصف الليل.

تعجب "علي" مما قاله "ياسر عرفات"، فسأله: أليس الميعاد بعد غد؟

فابتسم له "ياسر عرفات" والتفت ليخرج، ثم أكد عليه قائلًا: جهز نفسك وستعرف كل شيء في حينه.



وفي منتصف الليل، وقف "علي حسن سلامة" أمام باب غرفته، إذ أخذه أحد الشباب إلى واحدةٍ من الغرف الجانبية، فوجد نفسه و اقفًا مع أربعة شباب معهم حقائبهم، وفجأة دخل عليهم السيد "أبو إياد" لشرح الموقف لهم قائلًا: مرحبًا بكم يا شباب، بدايةً أعرفكم بنفسي، اسمي أبو إياد، وسوف أشرح لكم باختصار ما سوف تنفذونه في خلال الساعات القادمة، بعد نجاح كل فرد منكم بعددٍ من الاختبارات المباشرة وغير المباشرة للتأكد من صدق ولائكم. ستغادرون الآن إلى القاهرة للحصول على دورة تدريبية في العمل الأمني والتخريبي، وهذه جوازات سفر تحمل أسماء ووظائف وهمية ستسافرون بها من خلال مطار عمان المدني (وأخرج من جيبه خمسة جوازات سفر وأعطاها لهم). في هذه

المرحلة، لن يتفاعل أي أحد منكم مع الآخر بأي صورة من الصور، وبعد أن تصلوا إلى القاهرة سالمين بإذن الله، سوف يجد كلٌّ منكم شخصًا ينتظره ليأخذكم إلى بقية زملائكم. هل عند أحدٍ منكم أي سؤال؟

"علي": هل ذلك يعني أنه يوجد زملاء آخرون لنا في الدورة؟

"أبو إياد": ستعرف كل شيء في حينه، هل عند أي أحد آخر منكم أي سؤال؟

ساد الصمت بين الجميع، فاستكمل "أبو إياد" حديثه قائلًا: إذًا على بركة الله، سأغادر الآن، وبعد خمس دقائق سوف تغادرون من ذلك الباب (وأشار بإصبعه ناحية باب سريّ في الاتجاه الأيمن للغرفة). ستجدون فيه ممرًّا

تنتظركم في نهايته خمس سيارات مختلفة، ليستقل كلٌّ منكم واحدة توصله إلى باب المطار.

وبعد مُضيِّ خمس دقائق من مغادرة "أبو إياد"، بدأ الشباب في الخروج من الحجرة واحدًا تلو الآخر، وساروا في ممرٍّ تراوحت مسافته بين الخمس مئة والسبع مئة وخمسين مترًا، كاد أن يكون مظلمًا بالكامل لولا وجود عدة مصابيح ساعدت الشباب على التحرك دون أن يرتطم أحدهم بالآخر، لينتهي بهم الممر خارج المبنى، إذ وقفت أمامه خمس سيارات مدون عليها أسماء شركات سياحة داخلية بالأردن. وكما أُمِروا، ركب كل شاب منهم سيارة، و انطلقوا جميعًا نحو المطار، إذ استقلوا الطائرة المتجهة نحو القاهرة.

في خلال هذه الرحلة، كان أمام كل شاب منهم فرصة لتأمل ماضيه وحاضره ومستقبله، والتفكر في العالم الذي سوف يُقدِم عليه بكل ما يحتويه من غموض وتعقيدات، والتساؤل حول الذي سوف يتلقونه من تدريبات، كيف سيكون شكلها؟ هل سيستطيعون النجاح في أدائها؟ وهل حقًّا سيكونون على قدر المسئولية؟ كل تلك الأسئلة كانت تدور في ذهن كلِّ شابٍّ منهم.

وبعد أن هبطت الطائرة وخرج الشباب من المطار، وجد كل فرد منهم سيارة سياحية أخرى في انتظاره، وبمجرد ركوبِ كلٍّ منهم السيارةَ التي تنتظره، انطلقت به في شوارع المحروسة. وعلى الرغم من سير كلِّ سيارةٍ منهم في طريقٍ مختلفٍ كليًّا عن الآخرين، فقد التقوا جميعًا في النهاية

أمام أحد المباني في قلب القاهرة، إذ وجدوا في انتظارهم

شابًّا مرتديًا بذلة أنيقة في أوائل العشرينيات، قال لهم:

مرحبًا بكم، وحمدًا لله على سلامتكم. اسمي هو "أحمد

محمود"، وسأكون مر افقكم في مدة وجودكم بالقاهرة.

الآن سوف أصحبكم إلى غرف نومكم لتستريحوا من عناء

السفر، وغدًا ستجتمعون مع أحد المسئولين في تمام

الساعة السادسة صباحًا، أي أسئلة أو استفسارات

لديكم سوف يتم الإجابة عنها في وقتها.

وبعد انتهاء السيد "أحمد محمود" من حديثه، تقدم

الشباب الخمسة وهم حاملون حقائبهم على أكتافهم

وأيديهم، لاصطحابهم إلى غرف نومهم للاستراحة من

عناء الرحلة. وبعد أن استراح الجميع وغرق كلٌّ في سُباته،

استيقظ "علي" داخل أحد أحلامه الشيقة التي وجد

نفسه فيها مُمددًا داخل إحدى الغرف بجوار امرأةٍ لم يتبين ملامحها من شدة الظلام الذي غطى الغرفة، وبهدوء شديد بدأ "علي" في إيقاظ المرأة التي بجواره قائلًا: هيا يا زوجتي استيقظي، لقد قارب ميعاد صلاة الفجر على الحلول.

عندها ردت عليه تلك المرأة وقد غلبها النعاس: حسنًا يا عزيزي، سوف أستيقظ الآن.

وما كادت المرأة تنهي حديثها حتى أصيب "علي" بصدمة مزدوجة زرعت عشرات الأسئلة داخل رأسه، فصوته كان خشنًا ومختلفًا تمامًا عن ذلك الصوت الذي يعرفه. فمن يكون يا ترى صاحب ذلك الصوت، إن لم يكن هو صاحبه؟ ثم منذ متى بات عنده منزل مستقل وزوج؟ وممَّا

زاد دهشته، أن تلك المرأة -التي من المفترض أنها زوجته- كان صوتها مشابهًا بصورة كبيرة جدًّا قد تصل إلى حد التطابق إلى صوت أمه، فهل هذه المرأة هي أمه فعلًا أم كل ذلك مجرد هلاوس وخر افات ليس لها أي وجود إلا داخل رأسه؟

لم يشغل "علي" بالًا بكل تلك الأفكار، أو إن صح القول، لم يجد الفرصة كي يشغل باله بتلك الأفكار، إذ نهض من سريره بطريقة لا إرادية متجهًا نحو خز انة ملابسه، التي أخذ منها الكوفية الفلسطينية والعقال وملابس خروجه، وبعد أن انتهى من ارتداء ملابسه، توجَّه نحو إحدى المر ايا بالغرفة، وكان معلَّقًا بجوارها أحدُ القناديل التي تُستخدم في إضاءة المنزل، وما إن أشعله حتى اكتملت صدمته، إذ اكتشف أن الو اقف في مواجهة المرآة ليس

"علي حسن سلامة"، وإنما أبوه الشيخ "حسن سلامة" بشحمه ولحمه عندما كان في العقد الثالث من العمر.

بدأ "علي"، أو بالأحرى الشيخ "حسن"، في أخذ كُلٍّ من مسدسه وبندقيته وخنجره، ووضَعهم كُلًّا في مكانه، ومن ثم زين صدره بحزامين متقاطعين للذخيرة، وبعد انتهائه من تجهيز نفسه، نظر خلفه ليجد زوجته تبدأ في النهوض من على السرير للوضوء وأداء صلاة الفجر، عندها انطلق نحو مسجد القرية لأداء فريضته حاملًا مصباحًا بيد والبندقية بيده الأخرى.

وبخطوات ثابتة، سار الشيخ "حسن" باتجاه المسجد، في حين كان الظلام قد أغشى جميع جوانب تلك القرية، حتى القمر في تلك الليلة قد بخل عليه بنوره معلنًا

وصوله إلى ليلة المُحاق، ولم يقطع ذلك الظلام الحالك سوى بعض المصابيح المعلقة في السماء، بالإضافة إلى المصباح الذي كان بين يديه.

وبمجرد وصوله إلى المسجد، استقبله عددٌ من الشباب الذين يصغرونه سنًّا ليؤمَّهُم في الصلاة، بالإضافة إلى من كان موجودًا في المسجد، وبعد انتهاء الصلاة وتوجُّه كُلٍّ إلى حاله، جلس حوله هؤلاء الشباب لتلقي أحد دروسه في فقه الجهاد، وكان مما قاله في ذلك: كان الرسول ﷺ إذا ما أخرج أحد الجيوش، دائمًا ما يوصيهم بألا يقتلوا شيخًا ولا طفلًا ولا امرأة، ولا يقطعوا شجرة، ولا يخربوا عامرًا، ولا يعقروا شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وألا يعترضوا الرهبان وأن يتركوهم في صوامعهم. ولهذا يا إخواني، لا بد عندما

نوجه ضرباتنا ألا نوجهها إلا للغزاة، وألَّا نعتدي {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

أحد الطلاب: ولكن يا شيخ، إن الصهاينة إذا ما دخلوا قرية قتلوا كل كائن حي بداخلها غير مميِّزين بين كبير وصغير أو شيخ أو امرأة، واغتصبوا النساء وبقروا بطون الأمهات.

الشيخ "حسن سلامة": يا بني، نحن لسنا بسفاحين، لكننا مجاهدون ثائرون مهمتنا هي تحرير الوطن ورَدُّ الاعتداء عن أهلنا، ثم ليس معنى أن يكونوا هم جزارين ومغتصبين أن نكون مثلهم.

وما كاد الشيخ "حسن سلامة" يكمل تلك الجملة حتى سمع الجميع صهيلَ خيلٍ قادمٍ من الخارج، قدم على إثره

شابٌّ أخبر الشيخ ومن معه بأن قطار الجنود الإنجليز قد انطلق وأن عليهم الإسراع للوجود في المكان المحدد، حيث سيُهاجمونه. عندها نهض الجميع من مجلسه، وامتطى كلٌّ حصانه، لينطلقوا في جُنح الظلام نحو الجسر الو اقع ما بين اللد وحيفا.

إلا أنه ما كاد الشيخ "حسن" ورجاله ينهون تلغيم الجسر حتى رأوا مشهدًا لم يسبق لهم أن رأوه في حياتهم، إذ تم تجهيز القطار بمنصَّةٍ بطول وعرض القطار، جلس عليها مجموعة من المعتقلين الفلسطينيين لدى الحكومة البريطانية، موزَّعين بو اقع فردٍ لكل متر، ومربوطين بالسلاسل والكلابشات، صانعين بهم درعًا بشريةً لحمايتهم من هجمات الثوار، وزيادةً في الاستهزاء بهم، صوَّب بعض الجنود الإنجليز فوهات بنادقهم تجاه

المعتقلين، وبمجرد مشاهدة الثوار هذا المشهد، أصيبوا بحالةٍ من الذهول، قطعها الشيخ "حسن سلامة" بأمره بإلغاء العملية فورًا وسرعة الانسحاب حفاظًا على أرواح المعتقلين.

عندها أدرك "علي" أنه الآن في المدة ما بين 1938 و1939 م، إذ قامت الإمبراطورية البريطانية باستخدام الدروع البشرية لأول مرة في التاريخ لدَحْر هجمات الفلسطينيين المتواضعة، ومن ثم تم إخماد الثورة الفلسطينية الكبرى بأشرس الوسائل. كان هذا ما درسه وتعلمه في صغره، إلا أنه ما كاد يدرك ذلك حتى هبت رياح عاتية حولت كل ما حوله من بشر وشجر وجماد وحجر إلى هباء منثور، ليجد نفسه -بعد أن هدأت تلك الرياح- بجسد والده يقود مجموعة من مقاتلي "جيش الجهاد

المقدس"، ويطارد مجموعة من عصابات "الهاجاناه"، إلى أن نجح في النهاية في طردهم خارج إحدى المستوطنات الو اقعة بضواحي تل أبيب، ليُجري بعدها رجالُه عمليةَ استكشاف للمنطقة، وذلك للتأكد من خلوِّها من أي أعداء. إلا أنه في خلال عملية الاستكشاف تلك، عثروا على ما لم يكن في الحسبان أبدًا؛ وجدوا خمسةً وعشرين طفلًا لا تتعدى أعمارهم العشرة أعوام في حالة بكاء هستيري من شدة الخوف، فما إن رآهم المقاتلون على تلك الحالة حتى توجه بعضهم إليهم لتهدئتهم، في حين توجه عدد آخر إلى الشيخ "حسن" لإخباره بما وجدوه، وما إن علم بذلك الخبر حتى أمر بإرسال هؤلاء الأطفال إلى نسائهم لرعايتهم حتى يتم التواصل مع الصليب الأحمر لتسليمهم إليهم.

عندها صاح أحد الجنود قائلًا وعلامات الغضب المزوجة بالحنق تعلو وجهه: عجبًا! هم يقتلون أطفالنا ويغتصبون نساءنا ويحتلون أرضنا ونحن نرعى أطفالهم!

فرد عليه الشيخ "حسن" بكل هدوء قائلًا: بالتأكيد يا بني، فهذا ديننا وذلك دينهم، ولا تنسَ قول المولى جلَّ وعلا: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}، فهؤلاء مجرد أطفال أبرياء لا يصحُّ أبدًا أن نأخذَهم بإثمٍ اقترفتْه أيدي آبائهم.

حينها طأطأ ذلك الشاب رأسه خجلًا مما قاله، فتحدث قائلًا: آسف عما بدر مني يا شيخ، فلقد غلبني الغضب وأعمى بصيرتي.

فرد عليه الشيخ "حسن": ارفع رأسك يا بني، فإني أشعر بكل ما تشعر به بل وأكثر، فمن يفعل اليهود بهم ذلك هم

أهلنا جميعًا، ولكن يجب علينا أيضًا ألا نتخلى عن تعاليم

ديننا الحنيف مهما كانت الأسباب.

وبمجرد إنهاء الشيخ "حسن" حديثه، هبَّت الرياح

السابقة نفسها التي أحالت كل ما حوله إلى هباء منثور،

استُبدِل في الحال بمنزل الشيخ "حسن سلامة" الذي عاد

إليه مرة أخرى، لكنه هذه المرة كان جالسًا مع زوجته

و ابنه "علي" الذي كان في الخامسة من عمره في ذلك

الحين. نظر "علي" إلى نفسه وهو صغير من خلال عينَي

وجسد أبيه، ليتذكر أيامًا كادت أن تُمحى من ذاكرته، تلك

الأيام التي كان يلعب فيها في ساحة منزله بفضاء اللد، في

حين كانت تُظلِّله أشجار الزيتون والعنب المزروعة في

منزله.



وبهدوء شديد، بدأ الأب الحديث إلى ابنه قائلًا: أريدك يا بني أن تستمع جيدًا إلى ما سوف أقوله لك، لأني وإن كنت مدركًا جيدًا أنك لن تفهم أي كلمة مما سوف أقوله، إلا أنني أرجو أن تتذكر ما أقوله لك في الوقت المناسب، لأنني أخشى ألا أستطيع أن أجلس معك مثل هذه الجلسة مرة أخرى.

عندها قاطعته زوجته قائلة: رزقك الله طول العمر والصحة والعافية يا "أبو علي".

الشيخ "حسن": أرجوكِ يا أم علي، طال العمر أم قصر، فهو في النهاية إلى زوال، فجميعنا ضيوف في هذه الدنيا.

ثم التفت الشيخ "حسن" إلى ابنه مرة أخرى مكملًا حديثه: أعرف جيدًا يا بني أنني لم أستطع أن أكون أبًا



مثاليًّا بالنسبة إليك، يُعلِّم ابنه الفضائل، ويكون بجانبه وقت الشدائد، وأن أمك قد حاولت قدر استطاعتها أن تملأ هذا الفراغ الذي تركته بمحاولة قيامها بدورَي الأم والأب معًا، ولذا أرجو منك يا بني أن تسامحني وتعذرني في ذلك، فهذه هي ضريبة من أراد أن يعيش حُرًّا في عالم مليء بالعبيد، لأني ببساطة اخترت دربَ الجهاد والاستشهاد لتحرير البلاد بدلًا من درب الخضوع والخنوع والاستسلام لتحكم العباد في العباد. ووصيتي لك يا ولدي عندما تكبر، أن تُكمل أنت وجيلك طريق التحرير، فطريق التحرير طويل، وإذا ما رزقك الله الموهبة والقدرة على القيادة فاستمر في الإبداع في الأفكار والأدوات، فكلما أبدعت في حربك مع العدو، جعلته هو من في موقف

الدفاع، وسلبت منه كل أدواته الهجومية، وجعلته مشلولًا سواء في التفكير أو الحركة.

وما إن أنهى الشيخ "حسن" حديثه، حتى بدأ "علي" القابع داخل جسد أبيه في الانسلاخ منه شيئًا فشيئًا، حتى صار في مواجهته، عندها انتقل الاثنان إلى بُعدٍ آخر حيث لا أحد فيه سواهما، ليبدأ الشيخ "حسن" الحديث قائلًا: ها يا عليّ، هل رأيت كيف عانى جيل آبائك في محاولاتهم المتواضعة للدفاع عن أرضهم؟

"علي": أجل رأيت يا أبي.

الشيخ "حسن": وهل تعدني بأن تبذل كل ما في وسعك كي لا تضيع مجهود من استشهد قبلك بمَن فيهم صديقك



مصعب، وتُنفِذ في سبيل ذلك كل ما أوصيتك به في صغرك؟

عندها لمعت عينا "علي" من الدموع عند تذكره صديقه "مصعب"، لكنه تحامل على نفسه قائلًا: أعدك يا أبي.

وبمجرد إنهاء كلٍّ من الطرفين حديثَه، استمع "علي" إلى عددٍ من طرقات الباب المنتظمة التي -بحكم العادة- التفت إليها لينظر مَن الطارق، إلا أنه لم يجد شيئًا، فأدار رأسه ناحية أبيه مرة أخرى، لكنه ما إن فعل ذلك حتى اختفى والده تمامًا. ليستيقظ من سُباته على صوت طرقات الباب التي كانت لا تزال مستمرة، وما إن فتحه حتى وجد أمامه السيد "أحمد محمود" وذلك لاصطحابه هو وبقية رفاقه -بعد أن تم إيقاظهم بالطبع- إلى إحدى

القاعات داخل المبنى. وفي أثناء توجههم إلى تلك القاعة، تذكر "علي" كلمات ووصية والده، فقال لنفسه بصوت مسموع دون أن يدري وهو يبتسم بشدة: أعدك يا أبي أن أحقق كل ما أمرتني به.

فنظر إليه أحد رفاقه قائلًا له: ها؟ ماذا تقول يا علي؟

عندها انتبه "علي" إلى أنه كان يفكر بصوت مسموع، فردَّ عليه قائلًا والابتسامة تعلو وجهه: لا... لا تشغل بالك يا صديقي، إنها مجرد أحلام يقظة، فلنركز الآن في مستقبلنا.

وبمجرد دخولهم إلى تلك القاعة، وجدوا فيها مدرجًا جالسًا به خمسة وعشرون شابًّا فلسطينيًّا آخر، وبعد أن تعرفوا عليهم، اكتشفوا أنهم قد وصلوا إلى هذا المكان بالطريقة نفسها، وحدثت معهم المواقف نفسها تقريبًا.

وبعد انتظار لمدة ساعة كاملة، وفي تمام الساعة السابعة، دخل رجل جلس على الطاولة المقابلة للمدرج، كان ذلك الرجل في منتصف العقد الثالث من العمر، ذو شارب قصير، مرتديًا بذلة سوداء اللون، وحاملًا في يديه سيجارًا أشعله لتوه. وبعد أن تأكد من عمل الميكروفون القابع أمامه، بدأ الحديث قائلًا: أهلًا بكم، أعرفكم بنفسي، اسمي هو "محمد مصطفى"، وسأكون الضابط المسئول عنكم في خلال مدة تدريبكم. لكن قبل أي شيء، أريدكم أن تعرفوا شيئًا بسيطًا. قد يعتقد البعض أنكم سوف تتعلمون لدينا أمورًا في غاية التعقيد، لكن في الحقيقة إننا لن نعلمكم أي شيء جديد في حياتكم، لكننا فقط سنعيد إليكم مدة طفولتكم، وكل شيء كنتم تفعلونه و أنتم أطفال سوف نذكركم به لتفعلوه و أنتم كبار.

نظر الشباب بعضهم إلى بعض وهم مصدومون ومتعجبون مما يقول هذا المسئول، إلا أنه أكمل حديثه قائلًا: على سبيل المثال، عندما كنتم أطفالًا وكسر أحدكم شيئًا بالمنزل، فما هو أول شيء كنتم تفعلونه؟ تخفونه، أليس كذلك؟ إن ذلك عمل أمني، وهذا ما سوف نفعله هنا.

ظلت علامات التعجب والاستفهام عالقةً بوجوه الحاضرين في القاعة، إلا أن السيد "محمد مصطفى" لم يُعِر تلك الأوجه أي اهتمام، وأكمل حديثه: والآن، سوف تخرجون معي لنبدأ أولى مراحل التدريب.

وبذلك بدأ الشباب التدريبات الخاصة بالدورة الأمنية التي أثبت فيها "علي حسن سلامة" كفاءة عالية على



الرغم من حداثة انضمامه إلى هذا العالم الجديد، وبعد انتهائها تم اختياره هو ومجموعة من الشباب لدخول الدورة المتقدمة الخاصة بالعمل الاستخباراتي والتجسس وتكوين الشبكات والتنكر، وقد كان أحد أعضاء تلك المجموعة "غازي عبد القادر الحسيني"، وهو ابن الشهيد "عبد القادر الحسيني" قائد "جيش الجهاد المقدس"، الذي كان مسئولًا عن مقاومة الكيان الصهيوني والاحتلال البريطاني في المدة ما بين 1936 و1948 م، وقد كان الشيخ "حسن سلامة" والد "علي" هو الآخر أحد أضلاع ذلك الجيش. وقد تعرف الشباب بعضهم على بعض في خلال هذه الدورة، وأصبحوا أصدقاء مقربين.



بعد انتهاء الدورة، تم توزيع الشباب المتخرجين منها على عددٍ من المواقع في المنظمة، كل بما يتناسب مع قدراته، وكان من نصيب "علي" ملفٌّ شديدُ الحساسية والخطورة، ألا وهو فرز ملفات المنضمين جميعهم إلى حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية لاكتشاف الجواسيس والعملاء من بينهم، لينجح في خلال عدة أشهر في اكتشاف ما لا يقل عن اثني عشر عميلًا للموساد داخل صفوف المنظمة والحركة.

وقد أهَّله ذلك النجاح الكبير لتولي منصب نائب رئيس جهاز المخابرات الفلسطينية "رصد"، وقيادة الوحدة رقم سبعة عشر المسئولة عن تأمين وحراسة القائد "ياسر عرفات". وكأيِّ شاب في هذه المرحلة العمرية، كان لا بد له من أن يتزوج. لذا، وفي زواج تقليدي للغاية، تزوج "علي

حسن سلامة" ابنة مفتي فلسطين الشيخ "أمين الحسيني"، الذي كان هو الآخر رفيقَ والده في النضال ضد الصهاينة والإنجليز.

على صعيدٍ آخر، كانت آثار ونتائج معركة الكرامة لا تزال بارزةً على الساحة، فالشباب الفلسطيني بات يتوافد على الأردن بصورة شبه يومية من بُلدان المهجر كافة للانضمام إلى صفوف الثورة الفلسطينية، التي أصبحت ظاهرة مجتمعية غزت كل بيت فلسطيني، إلا أن هذا التطور الإيجابي الملحوظ صاحبه أيضًا بعض الحوادث والاحتكاكات مع السلطة الأردنية، التي تطورت هي الأخرى إلى أن وصلت في النهاية إلى ذروتها في أحداث أيلول الأسود، التي انتهت بتصادم الجيش الأردني مع قوات منظمة التحرير الفلسطينية عام 1970 م، وقد كانت

متمركزةً آنذاك في الأردن، ومقتل ما يزيد على خمسة

آلاف فدائي فلسطيني، وطرد المقاومة الفلسطينية من

الأردن بالكامل، و انسحابها إلى لبنان حيث تمركزت

قواعدها هناك، وبدأت بتنظيم صفوفها من جديد.

وقد كان لتلك الحادثة أثر أليم في قلوب الفلسطينيين

بصفة عامة، وفَتَانا "علي حسن سلامة" بصفة خاصة،

إذ ذهب في أحد الأيام إلى صديقه "غازي" لإخباره برغبته

في الخروج معه بالسيارة ليحدِّثَه في أمرٍ مهم، وبالفعل

خرج الاثنان معًا، و اتجها صوب منطقة شبه مهجورة

ببيروت، وما إن وصلا إليها حتى ترجل الاثنان، وسار

"علي" وخلفه "غازي" عدة خطوات بعيدًا عن السيارة

ليشعل سيجارة، أخذ منها بضعة أنفاس، ثم التفت إلى

"غازي" لسؤاله قائلًا: ما رأيك فيما جرى في أحداث أيلول؟

"غازي": الأمر لا يحتاج إلى رأي؛ لقد تم ضرب المقاومة ضربة مميتة، وما زاد الطين بلة هو أن الضربة هذه المرة أتت إلينا من أعز الناس علينا، من أهلنا وليس الصهاينة.

"علي": أحسنت القول، ولذا ولكل ما قلت و أكثر، لا بد لنا أن ننتقم ممن فعلوا بنا هذا ونثأر لشهدائنا ووضعِنا كثورة.

"غازي" متعجبًا ومتحمسًا في الوقت نفسه: وكيف سنفعل ذلك؟

"علي": سوف نؤسس أيلول الأسود.



(5)

منظمة أيلول الأسود والانتقام للثورة

تعجب "غازي" مما قاله "علي"، فسأله وعلامات الدهشة والاستغراب تعلو وجهه: نؤسس أيلول الأسود! ماذا تقصد؟

التفت "علي" إلى "غازي" والحماس قد غمر كلَّ خليةٍ بجسمِه، ليحدثه قائلًا: باختصار، تقرر إنشاء منظمة سرية تحت اسم "أيلول الأسود" لن يكون لها أي علاقة ظاهرية بكلٍّ من حركة فتح أو منظمة التحرير الفلسطينية، وكذا لن يكون لها متحدثون أو خطباء. هدفها الرئيسي هو الانتقام لقتلَى وضحايا مذابح أيلول الأسود، وتوصيل رسالة إلى كل الكيانات والدول الداعمة

لدولة الاحتلال بأنكم ما دمتم تدعمون الكيان المغتصب

الجزار فانتظروا غضبة و انتقام الأحرار، وتوصيل

تفاصيل القضية الفلسطينية إلى الرأي العام العالمي

الذي نَسِيَ أو تناسى هذه القضية بدفع من اللوبي

الصهيوني، و إيصال رسالة إليهم بأن شعب فلسطين

الأبية لا يزال موجودًا ولم يمت، ولن يرضى عن العودة

وتحرير الوطن بديلًا. فهل ستكون معنا؟

"غازي": هل تمزح؟ بالتأكيد معكم.

لتبدأ بذلك أولى عمليات أيلول الأسود التي كان من

الطبيعي أن تكون ضد من قتل وحارب الفدائيين بالأردن.

ففي الثامن والعشرين من نوفمبر عام 1971 م، وبينما

كان رئيس الوزراء الأردني "وصفي التل" عائدًا إلى فندق

شير اتون القاهرة بصحبة الوفد الخاص به بعد يوم

شاق من المباحثات ضمن اللجنة العسكرية لجامعة

الدول العربية، انفصل "عزت رباح" الشاب الفلسطيني

البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا عن فوج السياح

الأمريكيين الذي كان ضمنه، ثم نادى "وصفي"، الذي ما

إن التفت إليه حتى تلقى خمس رصاصات في صدره أردته

قتيلًا على الفور. وبسرعة البرق ظهر ثلاثة رفاق آخرين له

تم توزيعهم على صورة مثلث لحماية زميلهم من أي

اعتداء في أثناء قراءته البيان الذي أعلن فيه أن تنظيم

أيلول الأسود هو من نفذ عملية الاغتيال؛ انتقامًا وثأرًا

لمن قُتِلوا من الفلسطينيين على يد "وصفي" في أحداث

أيلول. وفي تشفٍّ واضح، جثا "منذر سليمان خليفة" أحد

أفراد التأمين الثلاثة، البالغ من العمر سبعة وعشرين

عامًا على ركبتيه أمام أعين السياح لِلَعْق دم رئيس الوزراء.

ولكن تلك العملية لم تكن إلا البداية وحسب، فلم تكد تجف دماء "وصفي التل"، حتى حدثت محاولة اغتيال فاشلة للسفير الأردني بلندن "زايد رفاعي"، تلتها حملة هجمات ضد السفارات وخطوط الطيران والتمثيلات الدولية التابعة للأردن في أرجاء الكوكب كافة.

في تلك الأثناء، ولكن في قلب فلسطين المحتلة، وتحديدًا داخل مبنى المخابرات الإسرائيلية "الموساد"، جلس ضباط الموساد لمتابعة تلك الأحداث والعمليات التي تجري لبحث تداعياتها، متسائلين: ما تلك المنظمة؟ ومن وراءَها؟ وما أهدافها؟ إلا أنهم في النهاية لم يعيروها

اهتمامًا شديدًا، نظرًا إلى كون أعمالها كافة حتى اللحظة

موجهةً إلى العرب وبخاصة الأردنيين منهم، وليس إليهم -أو

هكذا ظنوا- وهذا ما طمأنهم نسبيًّا.

وداخل أحد أروقة "الموساد"، بعيدًا عن أولئك الرجال

وبخطوات ثابتة، سار رجل قد تخطى العقد الرابع من

العمر بعدة أعوام، ضخم الجثة، داهية، متجهم دائمًا ولا

يبتسم إلا نادرًا، وجهه يبعث الخوف والفزع في قلوب كل

القريبين منه، وإذا ما رأيته تشعر للوهلة الأولى بأنه زعيم

مافيا، حاملًا السيجار الكوبي بين أصابع يده اليمنى،

يسحب منه بين الفينة والأخرى نَفَسًا، يُملأ على إثره -

بذلك الدُّخَان- الرواقُ السائر فيه، والموصل في نهايته إلى

باب مكتبه، الذي ما إن دخل إليه حتى وجد ظرفًا

مختومًا بالشمع الأحمر بختم رئاسة أركان الجيش

الإسرائيلي، وبداخله ملف مغطى بعلامة "سري للغاية"، حاملًا بين طياته البيانات التالية:

اسم الهدف: غسان كنفاني.

السن: ستة وثلاثون عامًا.

محل الإقامة: منطقة مارنقولا في بيروت الشرقية.

الوظيفة: روائي وسياسي وعضو المكتب السياسي والناطق الرسمي.

باسم: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ورئيس تحرير مجلة الهدف (المجلة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين).

بعض المعلومات الإضافية: متزوج زوجة دنماركية تُدعى "آني هوفا"، أنجب منها ابنًا يدعى "فايز" وابنة تدعى

"ليلى"، يعيش حاليًّا في شقة تملكها أخته ببيروت، لا يسير بحراسات أمنية، ما يجعله صيدًا سهلًا.

المطلوب: التعامل معه بأقصى سرعة ممكنة، وإخراسه إلى الأبد، إذ باتت كلماته تزعج القيادة العليا في الحكومة الإسرائيلية.

ولكن، من يكون هذا الرجل؟

(6)

مايك هاراري وغسان كنفاني وميونخ

ذلك الرجل هو "مايك هاراري"، الملقب بـ"مهندس الاغتيالات"، وقائد وحدة "السايريت ماتكال"، إحدى وحدات النخبة السرية في الموساد المعروفة باسم "فرق القتل والاغتيال"، والمكلفة بتنفيذ العمليات خارج حدود الكيان.

ولد عام 1927 م، أي بعد عشرة أعوام فقط من وعد بلفور، وكحال كثيرين من أبناء اليهود الصهاينة في ذلك الوقت، فقد تم حقنه بعديد من النصوص الدينية العنصرية التي تميز وتفضل اليهود على سائر البشر في الكون، «فغير اليهودي يُقتل إذا ضرب إسرائيليًّا لأنه

يكون قد ضرب القدرة الإلهية، ولذلك قتل موسى مصريًّا لأنه ضرب يهوديًّا»، و«غير اليهودي لا يختلف في شيءٍ عن الخنزير البري، في حين أن اليهود بشر لهم إنسانيتهم».

وغيرها كثير وكثير من النصوص الدينية، التي ما إن تشبَّع عقله وجسده بها حتى هاجر إلى فلسطين في عمر العاشرة لينضم إلى عصابات "الهاجاناه"، إذ تم اختياره في واحدة من وحدات النخبة الخاصة بـ"الهاجاناه" والمعروفة باسم "شيروت يديعوت"، وهي عبارة عن وكالة مخابرات سرية كانت مهمتها الرئيسية جمع أكبر كَمٍّ ممكن من المعلومات حول العرب وجيش الاحتلال البريطاني، ليخطو "هاراري" بذلك أولى خطواته في عالم الجاسوسية.



وعند إتمامه الثانية عشرة من عمره، أُصدِر الكتاب الأبيض، ذلك الكتاب الذي تم على إثره تحجيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين. لذا وكرَدِّ فعل سريع، وُكِّلت مهمة نقل المهاجرين اليهود إلى فلسطين بصورة سرية إلى عددٍ من العملاء الإسرائيليين الذين كان من ضمنهم "هاراري"، الذي على الرغم من حداثة سنه فقد نجح في تنفيذ مهمته نجاحًا منقطع النظير، مما أهَّله لما هو أهم وأخطر فيما بعد. ففي عام 1948 م، عند نشوب الحرب بين إسرائيل من جهة وعدد من الدول العربية من جهة أخرى، باتت إسرائيل في حاجة ماسة إلى استيراد الأسلحة من الخارج، لذا تم تكليفه هو واثنين من رفاقه بتلك المهمة الحساسة، التي نجحوا فيها نجاحًا كبيرًا،

ليتم نقله بعدها إلى جهاز"الشاباك" (الأمن الداخلي الإسرائيلي).

ومن نجاح إلى نجاح، تم نقل هاراري عام 1960 م إلى جهاز الموساد، إذ تمكن من زرع عدد كبير من العملاء والجواسيس في الوطن العربي، كان نصيب الأسد منهم مزروعين بداخل منظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح، لينجح في المقابل "علي حسن سلامة" في اصطياد ما يزيد على اثني عشر من هؤلاء الجواسيس والعملاء بحيلة بسيطة جدًّا، إذ كان يفرز الملفات الخاصة بالمنضمِّين جميعهم إلى حركة فتح ومنظمة التحرير، وأي شخص كان يشعر بالشك تجاهه يتم تكليفه بمهمة انتحارية وهمية، فإذا ما و افق على تنفيذ المهمة تأكد من صدق

ولائه، أما إذا رفض أو تردَّد في قبوله إياها، تأكد لهم عمالته، ومن ثم يتم القبض عليه ومحاكمته.

نعود مرة أخرى إلى بيروت، وتحديدًا حي الفكهاني الذي اتخذته منظمة التحرير مقرًّا لها، إذ إن المنظمة أرسلت - في بداية عام 1972 م- خطابًا رسميًّا إلى اللجنة الأولمبية يلتمسون فيه مشاركة فريق رياضي يمثل دولة فلسطين في دورة الألعاب الأولمبية التي سوف تقام في ميونخ، إلا أن هذا الخطاب ظل بلا إجابة، لذا أتبعوه بخطابٍ ثانٍ لتكرار الالتماس، إلا أنه ظلَّ مثل سابقه، إذ لم يتلقَّ أعضاء منظمة التحرير منه سوى الصمت ردًّا.

في تلك اللحظة، شعر أعضاء منظمة التحرير أن الفلسطينيين باتوا غير موجودين، وأنهم في نظر العالم هُم



والعدم سواء، وحرام عليهم تمثيل بلادهم ليس في المؤسسات الدولية والسياسية فحسب، بل و أيضًا في المؤسسات الرياضية التي تدَّعي أنها لا علاقة لها بالسياسة.

ومن هنا وُلدت فكرة عملية ميونخ، وفي قلب حي الفكهاني ببيروت، جلس الجميع للتشاور حول ذلك الأمر، فاقترح "فخري العمري" (أبو محمد)، مساعد "أبو إياد" على الدخول إلى القرية الأولمبية دون إذن لاحتجاز الرياضيين الإسرائيليين والمطالبة باستبدالهم بمئتين وستة وثلاثين معتقلًا، معظمهم من العرب.

في البداية، رفض "أبو إياد" الفكرة نظرًا إلى كون المستهدفين مدنيين، لكن "أبو داود" تدخَّل مؤيدًا فكرة



"فخري العمري"، على اعتبار أن الإسرائيليين لا يولون أي أهمية أو اعتبار لأي شيء، ولأن رياضييهم أصلًا عسكريون.

ولتعزيز فكرته قال: يا "أبو إياد"، إن المدرِّبين والمعالجين والرياضيين يأتون عمليًّا من مؤسسة أورد وينغايت، التي تحمل اسم ذلك الضابط البريطاني سيئ السمعة، الذي نظَّم بين عامَيْ 1937-1939 م في فلسطين، وبمساعدة "الهاجاناه" قوات المغاوير -التي خاض ضمنها أمثال ديان وألون- أولى معاركهم ضد جيل آبائنا، وتحوي المؤسسة تجهيزات هائلة قرب البحر شمال تل أبيب. وبحسب ما يوحيه اسمها، يقوم بالمهمات الإدارية والتنظيمية فيها قدامى ضباط الاستخبارات أو ضباط فرق المغاوير الخاصة الذين ينتمون إلى كوادر الاحتياط في الجيش

الإسرائيلي، وتُدرَّب فيها كل الرياضات، ويجري فيها

بصورةٍ خاصةٍ إعداد المصارعين و أبطال الرماية.

ثم أكمل حديثه قائلًا: ولا تنسَ يا "أبو إياد" أن المجتمع

الإسرائيلي مجتمع عسكري بطبعه، فبمجرد بلوغ أي

شخص في تلك الدولة ذكرًا كان أم أنثى الرابعة عشرة من

عمره، يتم إلحاقه مباشرة بكتائب الشباب "الجدناع"،

التي يتدرب فيها على حمل السلاح وخطط الاستطلاع

الجوية والبحرية، ويستمر إلحاقهم بها حتى بلوغهم

الثامنة عشرة، إذ يتم فرزهم إما لإلحاقهم بالقوات

النظامية في جيش الاحتلال أو بالخدمة العسكرية

الإجبارية لمُددٍ تتراوح بين العامين والثلاثة أعوام. وبعد

انتهاء الخدمة العسكرية، يكون لزامًا على الفرد حضورُ

دورةٍ تدريبيةٍ لمدة شهر مرةً في كل عام، ويظل الفرد

مطلوبًا ومسجلًا ضمن قوات الاحتياط حتى بلوغه الخامسة والخمسين إذا ما كان ذكرًا، أو الرابعة والثلاثين في حالة الإناث.

"أبو إياد" بهدوء شديد: بمعنى آخر، لا يوجد مدنيون في تلك الدولة إلا ما ندر.

"أبو داود": بالضبط.

"أبو إياد": حسنًا يا أبو داود، أرجو منك خلال توجُّهِكَ في جولتك إلى أوروبا لشراء الأسلحة، أن تمر على ميونخ وتستطلع الأمر.

وبالفعل، بمجرد وصول "أبو داود" إلى ميونخ بدأ مهمته، إذ حصل على خريطة للمدينة وكتيبات خاصة بالأولمبياد وقائمة بأسماء الفنادق وخطط سير المترو وكتيبات أخرى

بهذا الشأن، واستقل المترو وذهب إلى القرية الأولمبية شمال المدينة لاستطلاع الأمر، لكن كان العمل لا يزال جاريًا في القرية.

* * *

من ناحية أخرى، كان "مايك هاراري" ورجاله لا يزالون مستمرين في السعي بكل قوة لصيد أهدافهم الموكلين بقنصها. ففي فجر الثامن من يوليو عام 1972 م، توجهت إحدى فرق القتل إلى المكان القاطن به "غسان كنفاني"، وزرعوا عبوة ناسفة تزن تسعة كيلوجرامات من مادة (T.N.T) الشديدة الانفجار أسفل مقعد سيارته. وفي صباح ذلك اليوم، خرج "غسان" من منزله مصطحبًا ابنة أخته "لميس نجم" التي كانت قد أنهت التوجيهية بتفوق

كبير كي تتوجه للتسجيل في الجامعة الأمريكية، وبعد أن هبط من درج شقته وتوجه نحو سيارته الأوستين البيضاء ممازحًا ابنة أخته "لميس" التي كانت مدللته، فتح "غسان" باب السيارة، وأسرعت "لميس" إلى الجلوس في المقعد الأمامي إلى جانبه للانطلاق نحو الجامعة الأمريكية، إلا أنه ما إن أدار محرك السيارة حتى انفجرت لتتحوَّل إلى قطعٍ متناثرةٍ بمن في داخلها، وتتبخر بذلك أحلامُ فتاةٍ كانت ترنو إلى مستقبلها المشرق، ورجل كان كل ذنبه أنه أراد أن يعيش في وطنٍ حُرٍّ بلا محُتل.

* * *

نعود مرة أخرى إلى عملية ميونخ، إذ التقى "أبو داود" مع "أبو إياد" و"فخري العمري" في "صوفيا" عاصمة بلغاريا،



وناقشوا من جديدٍ أمورًا تتعلَّق بالعمليةِ المراد تنفيذها في ميونخ، مثل البلاغ الذي سيسلِّمه المهاجمون إلى السلطات الألمانية، والقائمة التي ستضمُّ أسماء معتقلين فلسطينيين في سجون إسرائيل، للمطالبة بإطلاق سراحهم مقابل إطلاق سراح الرياضيين، وتذليل العقبات بشأن جوازات السفر للذين سينفذون العملية وتأشيرات الدخول والإقامة وتأمين وصول السلاح، وكذا اختيار قائد العملية التي تقرر أن يكون لها قيادة ثنائية مكونة من كلٍّ من "محمد مصالحة" البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، والذي اختير ليكون مسئولًا سياسيًّا للعملية وذلك لإجادته التامة للألمانية، وكذا تمتعه بذكاء مميز ونضج سياسي. أما المسئول الميداني والعسكري للعملية، فقد تقرر أن يكون "محمود فقهي

نزال" الملقب بـ"تشي جيفارا"، الذي على الرغم من بلوغه الخمسة والعشرين عامًا ودراسته القانون في باريس، فقد كان مُلِمًّا بأساليب العصابات والتخريب بصورة مذهلة.

وبعد أن وقع الاختيار على هذين الاثنين، اجتمع معهما "أبو داود" للتشديد عليهما بعدم فعل أي عمل انتقامي ضد الرياضيين الذين سيتم احتجازهم، مثل القتل أو الجرح، وبأن العملية هي سياسية وليست عسكرية، وضرورة الظهور أمام الرأي العام كمقاتلين متمالكين لأعصابهم ومعاملة المحتجزين بصورة جيدة والتخفيف عنهم إذا لزم الأمر، والتوضيح لهم أن الفدائيين مجبرون على توثيق أيديهم بالحبال لأسبابٍ أمنية، وأن الهدف هو مبادلتهم بمئتين وستة وثلاثين أسيرًا تضمَّنتهم اللائحة

النهائية. كذلك تمت مناقشة أي أمور قد تطرأ، فمن بين المحتجزين المفترضين، يوجد مصارعون ورجال أقوياء وآخرون تدرَّبوا في الجيش، وإن ذلك قد يستدعي استخدام العنف لضبطهم.

وتم الاتفاق على عدم فتح النار إلا إذا كان خيارًا أخيرًا ووحيدًا، وكذا تم التناقش حول تفاصيل المطالب وطلب الطائرة لنقلهم والأسرى إلى بلد آخر، وحدود التنازل عن المطالب.

ولدراسة الموقع على أرض الو اقع، سافر الاثنان إلى ميونخ، وتحديدًا إلى القرية الأولمبية التي سوف يقطن بها الإسر ائيليون، فدخلها "مصالحة" الذي غيَّر مظهره ولبس شعرًا مستعارًا للعمل هناك عاملَ بوفيه. وعلى

وجه السرعة، بدأ "مصالحة" في استكشاف المكان بأسلوب منظم، إذ اهتم بصفة خاصة بدراسة الممرات الموجودة وأماكن سكن الإسرائيليين في القرية الأولمبية.

ومن خلال العلاقات الوطيدة التي نجح "مصالحة" في صنعها مع عديد من الموظفين الألمان والأجانب، تمكن من جمع كنز من المعلومات الخام التي أحالها بدوره إلى "تشي"، الذي كان متنكرًا هو الآخر على هيئة عامل داخل المطبخ الخاص بالقرية الأولمبية.

ولكن ظلت مشكلة تؤرق الجميع في القيادة العليا لأيلول الأسود، ألا وهي كيفية إدخال السلاح إلى ألمانيا، بخاصة بعد أن علموا أن البوليس الألماني وضع رقابة مشددة تشمل مداخل الحدود والشوارع والمحطات والمطارات

بصفة خاصة، ومع ذلك كان الوقت ضيقًا جدًّا لاستخدام وسيلة نقل أخرى غير الطائرة.

كانت الأسلحة عبارة عن ست بنادق كلاشينكوف، ورشاشين من نوعِ (كارل-غوستاف)، وعشر قنابل أمريكية الصنع، ومجموعة كبيرة من الذخائر تم وضعها في ثلاث حقائب، بالإضافة إلى حقيبتَيْ ملابس كنوعٍ من التمويه، ليصبح الإجمالي خمس حقائب. وتم توكيل مهمة إدخالها إلى أحد أعضاء "أيلول الأسود"، يُدعى "أبولبن"، وقد لاقى دعمًا من عضوة بإحدى حركات التحرر تُدعَى "جولييت"، إذ تزوجته من أجل تلك المهمة بأوراق مزيفة، وفي المطار-بعد أن هبط الزوجان من الطائرة- أوقفهما أحد موظفي الجمارك المحاطين برجال الأمن، وطالبهما بفتح الحقائب، إلا أن "أبولبن" نظر إليه بغضب

وصرخ في وجهه قائلًا: كيف لك أن تقول لي ذلك؟ إني رجل أعمال أسافر إلى كل أنحاء العالم، ولم يسبق لي أن لاقيت مثل هذه المعاملة، ولم يسبق لي أن أُهِنت هكذا كما لو كنت مشبوهًا!

ولكن الموظف رد عليه بكل هدوء قائلًا: سيدي، لا حاجة إلى كل هذا الانفعال، هذا هو القانون ويسري على الجميع، وغير مسموح بأي استثناءات، فأرجوك كن متعاونًا معنا، وإلا اعتبرناك مشتبهًا بك.

وبذلك أصبح "أبولبن" أمام حلَّيْن لا ثالث لهما، إما التمادي في جرأته وفتح الحقائب جميعًا، وفي تلك الحالة سوف يتم القبض عليه بتهمة تهريب السلاح، مما يترتب عليه إلغاء العملية ككل، وإما مطالبة مفتش الجمارك

بكل ثقة وثبات باختيار أي من الحقائب الخمس لتفتيشها، وفي تلك الحالة ستوجد احتمالية اختياره إحدى حقائب الملابس المشابهة في الصورة لحقائب الأسلحة، مما يترتب عليه خروجه سالمًا هو ورفيقته من المطار.

وهذا ما فعله الرجل، فبعد أن فتح الموظف إحدى الحقائب و أتمَّ تفتيشها، لم يجد فيها سوى ملابس حريمية، وعندها شعر بالإحراج الشديد، فأعاد الملابس إلى مكانها بكل هدوء، ثم اعتذر للرجل وزوجته، ورحب بهما في ألمانيا الاتحادية. وبمجرد خروجهما من المطار، اتجها بكل هدوء نحو مدينة "بون" الألمانية، إذ تم تبديل حقائبهما بأخرى فارغة بواسطة "أبو داود" نفسه، الذي انطلق بحقائب الأسلحة مباشرةً نحو محطة القطار

الرئيسية بميونخ لإيداعها في عدة صناديق للأمانات بالمحطة، وكان حريصًا على تغيير مكانها كل أربع وعشرين ساعة، إلى أن وصل بقية أعضاء الفريق في يوم الرابع من سبتمبر، ونزلوا في فنادق متفرقة.

في تلك المرحلة، كان اتصال أفراد المجموعة مع نزال ومصالحة فقط، ولم يكونوا يعرفون عن "أبو داود" شيئًا، كما اعتقد "أبو داود" الذي أكمل الاستعدادات، فاشترى ملابس رياضية وجهّز آلاتٍ حادةً وحبالًا ومَئونة طعام تكفي ثلاثة أيام، وغير ذلك من مستلزمات العملية، ليلتقي "أبو داود" بأعضاء الفريق كاملين في مساء الخامس من سبتمبر، إذ تم توزيع الأسلحة التي جُلِبت من المحطة على الحقائب، وكذلك المئونة وغير ذلك، وقد قدَّمه "نزال" و"مصالحة" على أنه رجلٌ تشيليٌّ مهمومٌ

بالقضية الفلسطينية، وتم وضعهم في صورة المهمة المنتظرة، ومناقشة مزيدٍ من التفاصيل.

استمرَّ اللقاء حتى الثانية والنصف فجرًا، بعدها توجَّه الجميع مرتدين ملابسهم الرياضية إلى القرية الأولمبية لعمل فتحة بالسياج الخارجي للقرية الأولمبية كما اقتضت الخطة، نظرًا إلى كون أبواب القرية -في ذلك الوقت- مغلقةً بطبيعة الحال، إلا أنه بمجرد وصول فريق الفدائيين إلى القرية الأولمبية، فوجئوا بقدوم أفراد من البعثة الرياضية الأمريكية متأخرين وهم ثملون، ويسعون جاهدين لتسلق السياج، فوجد الفدائيون في ذلك فرصة ذهبية لدخول القرية الأوليمبية بسهولة دون إثارة أي شكوك أو متاعب. فاختلطوا بالأمريكيين، وساعد بعضهم بعضًا على تسلق السياج، وكان المنظر

أقرب ما يكون إلى الخيال عند مشاهدة أعضاء البعثة الأمريكية وهم مادُّون أيديهم لأخذ حقائب أعضاء أيلول الأسود المليئة بالأسلحة لوضعها على الجهة الأخرى من السياج.

وبعد نجاح الجميع في الدخول إلى القرية الأولمبية، لم يتبقَّ على الطرف الآخر من السياج سوى واحدٍ من أفراد مجموعة أيلول الأسود، كان يتم استخدامه هو و"أبو داود" كنقطتي ارتكاز لتسلق السياج من قبل الوفد الأمريكي وبقية أفراد المجموعة نظرًا إلى ضخامة جسميهما. في تلك اللحظة، جاء الدور على "أبو داود" لاستخدامه هو الآخر كنقطة ارتكاز لذلك الفدائي، الذي ما إن نجح في تسلق السور وبات في الجانب الآخر منه حتى نظر إلى "أبو داود" وشكره على ذلك ذاكرًا اسمه، ليلحق

بعدها ببقية زملائه، مما يعني أنه كان طول الوقت على معرفة تامة بهوية "أبو داود" الحقيقية، على الرغم من أنه قُدِّم إلى الفدائيين على أنه رجل تشيلي مؤمن بالقضية الفلسطينية!

حينها نظر إليه "أبو داود" مبتسمًا من المفاجأة، وبعد أن اطمأن "أبو داود" إلى دخولهم القرية الأولمبية في تمام الرابعة صباحًا، غادر مستقلًّا سيارة إلى فندقه، وأخذ في الاستماع إلى الراديو لمتابعة التطورات من خلاله.

في تلك الأثناء، كان أفراد المجموعة قد غيروا ملابسهم الرياضية وارتدوا الملابس الميدانية الخاصة بالعملية، ووزَّع القائد "تشي" الأسلحة على أفراد المجموعة، وانطلقوا نحو مقر الوفد الإسرائيلي.

وفي أثناء إجرائهم عملية الهجوم والسيطرة على أفراد الوفد، إذا بأحد اللاعبين يبادر بمحاولة الاستيلاء على سلاح أحد الفدائيين، مما دفع زميله الذي كان بالقرب منه إلى إطلاق النار على ذلك اللاعب ليقتله على الفور. ولما فشل الأول، حاول آخر الاستيلاء على سلاح أحد أفراد المجموعة، الأمر الذي دفع زملاءه إلى إطلاق النيران عليه وجرحه هو الآخر.

وقبل أن تسود حالة هستيرية من الفزع بين أفراد الوفد، أطلق "تشي" طلقتين في الهواء محدثًا إياهم بالعبرية قائلًا: ليعلم الجميع أننا ليس لدينا أوامر بقتلكم أو إيذائكم بأي صورة، ولو أردنا ذلك لقتلناكم بمنتهى السهولة في أثناء نومكم، لكننا نريدكم أحياء أصحاء. ومنعًا لحدوث أي صورة من صور الفوضى، سيربطكم

أحد أفرادنا بالحبال وسيُسعِف آخر المصاب. وأرجو أن تتفهموا أننا مضطرون إلى أن نفعل ذلك...

وقبل أن ينهي قائد المجموعة كلماته، قفز أحد أعضاء البعثة الإسرائيلية من شرفة الاستراحة الخاصة بهم، مما دفع بعض أعضاء أيلول الأسود إلى تصويب بنادقهم باتجاهه لقنصه في حين ما يزال هو في مرمى نيرانهم، إلا أن "تشي" أمرهم وبكل حزم أن يتركوه لحاله فلا حاجة لهم به.

ركض ذلك الشخص لمسافات طويلة ليلًا، وبعد أن كادت تنقطع أنفاسه، وصل أخيرًا إلى أحد مراكز الشرطة الألمانية، وأخبرهم بوجود مجموعة تبدو عليها الملامح العربية الشرق أوسطية اختطفت الوفد الإسرائيلي

وأطلقت النار على اثنين منهم، وعلى الفور اتصل رئيس مركز الشرطة بالمسئولين وصعَّدَ الأمر إلى أعلى المستويات بألمانيا، إذ نزل الخبر على كلٍّ من الحكومتين الألمانية والإسرائيلية كالصاعقة، ودار مليون سؤال وسؤال في أرجاء الغرف المغلقة الخاصة بهاتين الحكومتين:

من هؤلاء؟

ماذا يريدون؟

مَن وراءهم؟

وعلى الرغم من أن الحكومة الإسرائيلية كانت في حيرة ضخمة حول هوية الخاطفين وأهدافهم، فقد كانت حيرة الحكومة الألمانية مضاعفة، إذ لم تكن تعرف ماذا تفعل مع هؤلاء، ولا مَن ترسله للتفاوض معهم.

ولكن لم تدم تلك الحيرة طويلًا، إذ اتفقوا في النهاية وبعد مشاورات جدية على ألا يوجد أحد بزي عسكري بالقرب من مقر الوفد كي لا يتم استفزاز المقاتلين، مع تكثيف الوجود الأمني، وأن يتم إرسال إحدى المسئولات بمنظمة الصليب الأحمر. وذلك لسببين، أولهما أن منظمة الصليب الأحمر منظمة دولية لها تعامل مع كثير من الفلسطينيين مما يعطيهم شيئًا من المصداقية لدى الخاطفين، وثانيًا: نظرًا إلى كون المفاوض امرأة، فلن يوجد خوف على حياتها، فهم يعرفون جميعًا مدى احترام وتقدير العرب للمرأة بصفة عامة والمسلمين بصفة خاصة.

وبالفعل، وقع الاختيار على إحدى المسئولات، المدعوة "كاثرين"، التي حاولت مرارًا رفض المهمة الموكلة إليها، إلا

أن عامل الوقت لم يكن في صالحها أو صالح ألمانيا، ولذا اضطرت في النهاية إلى الموافقة، وتم إعطاؤها جهازًا لا سلكيًّا للتواصل مع الحكومة الألمانية مباشرة. وبينما هي تتجه إليهم في إحدى سيارات الشرطة الألمانية، مرت بأصعب لحظات حياتها، إذ شعرت بخوفٍ شديدٍ مما سوف تلاقيه في اللحظات القادمة، فقد كانت تعتقد أنها ذاهبة إلى مجموعة من الهمج الهاربين من عصور الظلام إلى العصر الحديث، الذين لا يعلمون أي شيء عن الحضارة والرقي، ويعيشون على لحوم ودماء الأبرياء، أقرب ما يكونون في وصفهم إلى كائنات الزومبي (الأموات الأحياء) ومصاصي الدماء، وتسأل نفسها: أي مصيبة هذه التي أوقعت نفسي فيها؟ كيف سأتعامل مع هؤلاء وبأي لغة؟

لكنها لم تكن تعلم ما تحمله الساعات القادمة لها من مفاجآت، فبمجرد وصولها إلى مقر الوفد بالقرية الأولمبية، فوجئت بخروج شاب يافع -"محمد مصالحة"- مرتديًا قبعة شمسية مميزة، وبذلة صيد فاتحة اللون، وسويتر أبيض وحذاء بكعبٍ عالٍ، ومغطيًا وجهه بالفحم النباتي وحاملًا مسدسًا في يده ليأمرها بالألمانية بالتوقف والتعريف عن نفسها.

من هول المفاجأة والرعب الذي كانت تعيشه، وجدت نفسها تتوقف فجأة، وبينما لا تكاد قدماها أن تقويا على حملها، إذا بها ترُد بصوت متقطع مرتعش: اسمي كاثرين من منظمة الصليب الأحمر، أرجوك لا تقتلني، لقد أتيت للتفاوض معكم حول مطالبكم.

نظر إليها "محمد مصالحة" ليرى في عينيها كمًّا مهولًا من الهلع والخوف، فابتسم لها لطمأنتها، ووضع مسدسه في غمده قائلًا لها: اطمئني يا سيدتي، فنحن لا نقتل الأبرياء ولا نهين النساء، وأعتقد أنه لهذا دفع مرؤوسوكِ بكِ للتفاوض معنا.

عندها بدأت "كاثرين" في تمالك أعصابها واستعادة رباطة جأشها لتسأله قائلة: حسنًا، من أنتم؟ وماذا تريدون؟

"محمد مصالحة": نحن منظمة أيلول الأسود، ونريد مبادلة الرهائن الذين لدينا بمئتين وستة وثلاثين أسيرًا في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وهذه قائمة بأسمائهم.

وأخرج من جيبه قائمة تحمل أسماء الأسرى لإعطائها لها، لتسليمها إلى الحكومة الألمانية، ثم أكمل حديثه

قائلًا: وبالنسبة إلى عملية تبادل الرهائن، نريدها أن تتم خارج حدود ألمانيا، وتحديدًا في القاهرة.

"كاثرين": حسنًا، لكني أريد التأكد من سلامة الرهائن.

"مصالحة": لا توجد مشكلة.

دخلت "كاثرين" إلى مقر الوفد لتتأكد بنفسها من سلامتهم، وفي خلال وجودها بالداخل، طلب منها "مصالحة" إحضار شخصين لحمل جثة الإسرائيلي الذي حاول الاعتداء على أفراد المجموعة. لتخرج "كاثرين" من مقر الوفد وتخبر القيادة الألمانية بما وصلت إليه مع الفدائيين، وتخبرها الإدارة الألمانية بأن تقول لهم بأنه من الممكن إعطاؤهم أي مبلغ مالي يريدونه مقابل



الإفراج عن الرهائن، وإذا رفضوا، يُعرض عليهم استبدال الأسرى لديهم بآخرين مسئولين في الحكومة الألمانية.

ولكن بمجرد وصول تلك العروض إلى "مصالحة"، رفضها جملة وتفصيلًا قائلًا: يا سيدتي، أريحي حكومتك وأريحينا معكِ، نحن لم نقطع هذه المسافة ونجري هذه العملية من أجل حفنةٍ من المال مهما بلغت. نحن لدينا قضية عادلة نريد توصيلها إلى الرأي العام العالمي، فنحن شعب اغتُصِب ماله وأرضه وعِرضه على مرأى ومسمع من العالم أجمع الذي لم يكتفِ بمجرد المشاهدة، بل شارك القاتل في قتله والمغتصب في فعله باعترافه بأن هذه الأرض له وملكه. ولَيْتَ الأمر توقف عند هذا الحد، بل صار حرامًا على شعبنا ذكر اسمه في أي محفل دولي، حتى المحافل الرياضية التي تدعي أنها لا دخل لها بالسياسة

مُنِعنا منها، ونحن ليس علينا إلا أن نقول آمين خانعين خاضعين مستسلمين، ومن ينطق أو يطالب بحقه يصبح فجأة من الإرهابيين أعداء الوطن والدين.

حينها فقط أدرك الجميع أن هؤلاء الشباب لا يمزحون، وأن لديهم هدفًا يسعون إلى تحقيقه، ولن يمنعهم عنه إلا الموت. ولذا كان لزامًا على الحكومة الألمانية توصيل الصورة كاملة إلى الحكومة الإسرائيلية التي كانت آنذاك برئاسة "جولدا مائير" التي كان ردها صادمًا لهم، إذ قالت إنها لن تنفذ أوامر أحد، حتى ولو أدى ذلك إلى قتل جميع المخطوفين من البعثة الرياضية. ولذا لم يكن أمام الحكومة الألمانية سوى طلب عديد من مُدَد التمديد، وذلك لتأجيل حدوث تلك الكارثة، لعل الحكومة الإسرائيلية ترجع عن عنادها، ليحبس العالم أجمع

أنفاسه في خلال متابعته أحداث تلك العملية التي كان لها صدًى على العالم أجمع، وكيف لا، وهذه العملية تعد من أهم الأحداث التي مرت بألمانيا في تاريخها الحديث.

وفي النهاية، وتحديدًا في الساعة السادسة إلا الربع مساءً، تم إبلاغ الفدائيين على لسان "كاثرين" بموافقة الحكومة الألمانية على طلباتهم، وأنهم سوف ينقلونهم إلى أحد مطارات حلف شمال الأطلسي عن طريق مروحيتين لنقلهم بصورة نهائية في طائرة ركاب إلى القاهرة.

وقد كان، إذ انطلق الجميع نحو المطار، لكن "مصالحة" والفدائيين الذين معه كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بنية الغدر من الحكومة الألمانية، لذا كانوا شديدي الحذر في تعاملهم معهم، فعندما وصلوا إلى المطار،



وجدوهم واضعين طائرة الركاب على مسافة تتراوح بين خمسين وسبعين مترًا من مكان هبوطهم، وكان لزامًا عليه الذهاب لفحص الطائرة والتأكد مما فيها. وبالطبع وجود مثل تلك المسافة المكشوفة تعطي فرصة ذهبية لأي قناص لاصطياد الفدائيين واحدًا تلو الآخر، ولذا طلب "مصالحة" إحضار باص لنقلهم إلى الطائرة. وبمجرد قدومه، طلب واحدًا آخر خشية وضعهم أي غاز مخدر داخل الباص الأول، وبعد أن انتهى من عملية فحص الطائرة هو وأحد زملائه، وفي أثناء عودتهم إلى بقية المجموعة، فتح القناصة الألمان نيرانهم عليهم وقتلوهم، مما دفع بقية المجموعة إلى تفجير طائرة الرهائن وقتل كل من فيها، وكذا تبادل النيران مع الألمان، الأمر الذي ترتب

عليه مقتل الرهائن جميعهم، وضابط ألماني واستشهاد خمسة من أصل ثمانية فدائيين.

وبعد أيام قليلة من انتهاء العملية، نشرت وكالة الأنباء الفلسطينية وصية الفدائيين التي كان من ضمن ما ورد فيها:

"لم يخطر ببالنا ونحن نتابع عمليتنا الثورية، قتل الأبرياء، نحن نقاتل ضد الظلم ولا نريد تدمير السلام، لكننا نريد أن نضع أمام أعين العالم الدور القذر للاحتلال الصهيوني والمأساة العميقة لشعبنا.

نحن نطالب كل الأحرار في العالم بأن يتفهموا أسلوبنا الثوري الذي يستهدف مصالح الإمبريالية في كل العالم، ويكشف العلاقة بين الإمبريالية والصهيونية.

وليَفْهم شعبنا العربي مَن هي إسرائيل ومن هم حلفاؤها، نحن جزء لا يتجزأ من الثورة الفلسطينية المسلحة، التي بدورها جزء لا يتجزأ من حركة التحرر العربي. ونحن مطالبون بألا ندع سلاحنا على الرغم من كل المؤامرات وكل مصاعب المعركة، فالأرض سوف تتحرر بالدماء فقط، فالعالم لا يحترم إلا الأقوياء، ونحن سنكون أقوياء، لا بالكلمات ولكن بتحويل هذه الكلمات إلى أفعال.

ونحن نعتذر للشباب الرياضي في العالم إذا ما كنا جرحنا مشاعره بعمليتنا، لكننا نريد أن نخبره أنه يوجد شعب أرضه محتلة منذ أربعة وعشرين عامًا، هذا الشعب يتعذب من قبل عدوه (إسرائيل) الذي يقف بين صفوفكم، ولا يعني شيئًا بالنسبة إلينا في أي مكانٍ

سيوارينا التراب، فنحن نتمنى أن يتعلم شباب العرب كيف يموتون في خدمة أرضهم.

و أنتم يا فدائيي "أيلول الأسود" والثورة الفلسطينية جمعاء، واصلوا القتال بعزم، وليحيَ شعب فلسطين حُرًّا كريمًا، وليحيَ الثوار الأحرار في كل مكان".

(7)

حرب الأشباح

فشلت عملية ميونخ في تحرير المئتين والستة والثلاثين أسيرًا من سجون الاحتلال الإسرائيلي، لكن على الرغم من هذا الفشل الذي لا يستطيع أن ينكره أحد، فأيضًا لا يستطيع أحد نُكران النقلة النوعية التي حققتها تلك العملية في مسار القضية الفلسطينية، فبعد أن كان العالم أجمع -بخاصة الغربي منه- قد نَسِيَ أو تناسى قضية فلسطين، بل وفلسطين ذاتها، وباتت تلك البقعة من الأرض لا تُعرَف إلا باسم إسرائيل، أدرك الجميع أن هذا الشعب اللاجئ والمنتهك والمحاصر لم ولن يموت وسيظل مدافعًا عن أرضه ووطنه بأي وسيلة ممكنة،

سواء كان ذلك على أرضه المحتلة السليبة، أو في أي بقعة في العالم أجمع.

في المقابل، شعرت الحكومة الإسرائيلية بأن كرامتها قد أهينت، وهيبتها قد خُدِشَت بهذه العملية، وهذا بالطبع أمر لا يمكن قبوله في دولةٍ نشأت على أساس ديني نصَّ على أنهم فوق كل البشر، وأن جميع البشر في الكون ما هم إلا حيوانات خُلِقَت لخدمتهم، و أنه إذا ما تطاول أحدُ تلك المخلوقات عليهم بالقول أو الفعل، فلا عقاب له إلا القتل وبأبشع الطرق كي يكون عبرةً لبقية الخلق. وهذا ما قد كان، إذ اجتمع كلٌّ من "تسافي زامير" رئيس جهاز الموساد و"جولدا مائير" رئيسة الوزراء و"موشي ديان" وزير الحرب، فيما عرف باسم اللجنة (X)، ليقرروا مجتمعين تنفيذ عملية "غضب الرب" التي اشتملت على

قائمة تضم اسم ستة عشر عنصرًا داخل أيلول الأسود وخارجها، ما بين قيادات ومنفذي عملية ميونخ، وقد استهدفت اغتيالهم أينما كانوا. وبطبيعة الحال، كان أحد أبرز الأسماء الواردة في تلك القائمة هو اسم "علي حسن سلامة"، الذي كان رئيس العمليات والعقل المنفذ داخل منظمة أيلول الأسود آنذاك.

وقد وكلت تلك المهمة إلى "مهندس الاغتيالات"، أحد أدهى عملاء الموساد في تلك المدة، إن لم يكن أكثرهم دهاءً على الإطلاق "مايك هاراري"، لتبدأ بذلك حرب الأشباح التي كان بطلاها الرئيسيان كلٌّ من "هاراري" و"علي سلامة".

في الوقت نفسه، ولكن داخل أحد المباني السرية التابعة لمنظمة أيلول الأسود في لبنان، كان "علي حسن سلامة" قد أخذ غفوة الظهيرة كي يستطيع إكمال يومه. وفي خلال هذه الغفوة، غاص داخل أحد أحلامه الشيقة، التي ما إن غاص فيها حتى فتح عينيه ليكتشف أنه قد وقع داخل حلم غريب من نوعه. كان ذلك الحلم أشبه بفيلم سينمائي، له حق مشاهدته، لكن يستحيل التدخل في أحداثه. وكان أول مشاهد ذلك الفيلم -أو إن صح القول ذلك الحلم- داخل قرية ديرياسين، إذ بدأ في التجول داخل شوارع القرية الممتلئة برائحة الأرياف المميزة، حيث تختلط رائحة النباتات والمحاصيل الزراعية بالأسمدة العضوية وبعرق الفلاحين، ظُهْر التاسع من إبريل عام 1948 م بين سكان القرية، مستمعًا إلى ما

يرددونه عما يحققه جيش الجهاد المقدس بقيادة "عبد القادر الحسيني" من انتصارات في القدس ضد العصابات الصهيونية في أثناء مُدَد عملهم وراحتهم.

لم تطُل جولته كثيرًا داخل ذلك المشهد، إذ انتقل بعدها مباشرة إلى الساعة الرابعة فجرًا من صباح اليوم التالي، إذ كان سكان القرية جميع نيامًا، في حين بدأت تتجمع عناصر عصابة "الأرجون" لمحاصرة القرية من الجهتين الشرقية والجنوبية، واجتمعت عناصر عصابة "شتيرن" في الجهة الشمالية. في تلك اللحظة، ركض "علي" نحو منازل سكان القرية ليطرُق أبوابها بابًا بابًا بأقصى قوته، وذلك لتحذيرهم مما سوف يواجهونه في الساعات القادمة، إذ كان يعرف جيدًا ما سوف يحدث بالتفصيل في الساعات التالية، فدومًا ما حكَت له والدته وأصدقاؤه

ما حدث في تلك المذبحة، لكن كان من المستحيل على السكان أن يسمعوه أو حتى يشعروا بوجوده، فدوره هذه المرة هو المشاهدة، المشاهدة وفقط.

ليتم الانتقال مباشرة إلى المشهد التالي، إذ بدأت عصابتا شتيرن والأرجون في تنفيذ عملية اقتحام القرية في تمام السادسة صباحًا، إلا أنه نتيجةً لتسلُّح شباب القرية بأسلحة تعود إلى الحرب العالمية الأولى، فقد اضطُرَّت كلتا العصابتين إلى طلب الدعم والإمداد بقذائف الهاون من عصابة "البالماخ"، ليستمر تبادل إطلاق النيران حتى الظهيرة، إذ تم القضاء على أي صورة من صور المقاومة. ليبدأ "علي" في الصراخ عاليًا محاولًا طلب الاستغاثة من أي أحد، أو منع ما سيحدث في اللحظات القادمة بأي طريقة، لكن ما من مجيب.

ثم انتقل مقهورًا إلى المشهد التالي، إذ بدأت القوات المقتحمة في تلغيم البيوت بالديناميت بيتًا بيتًا، وتفجيرها على رؤوس ساكنيها، وليت الأمر توقف عند هذا الحد! و إنما كانت تلك هي البداية فحسب، إذ بدأ الصهاينة في الاستمتاع باغتصاب النساء والفتيات، والتلذذ بالمراهنة على نوع الأجنة بعد ذبح الأمهات وبقر بطونهن لإخراج الأجنة منها، والتنافس على تقطيع أطراف الأطفال وأعضائهم التناسلية لجمعها والتباهي بها أمام رفاقهم وقادتهم، لتتحول بذلك قرية ديرياسين من قريةٍ وادعةٍ هادئةٍ إلى أطلال وخرائب، وتستبدل رائحة الأرياف المميزة فيها برائحة الدماء الممزوجة بالخوف والذعر والإرهاب.

عندها لم يعُد لـ"علي" طاقة أكبر على الاحتمال بعد كلِّ ما رآه من مشاهد دموية جنونية لا تمت إلى الإنسانية بصِلة، بدأ على إثرها في الصراخ بأعلى صوته تعبيرًا عن غضبه ورغبته في الانتقام مما رآه، ليستيقظ وهو يلهث بشدة من هذا الحلم، أو إن صحَّ القول الكابوس. هذا الكابوس الذي عاشه شعبه في الماضي وشهده "علي" بكامل تفاصيله في الحاضر، وليس على لسانه إلا جملة واحدة، ظل يرددها بصفة مستمرة حتى هدأ بصورة كاملة، كانت تلك الجملة هي: "قسمًا لأثأرنَّ لكِ يا بلادي!".

وبينما كان لا يزال يُردد تلك الجملة، طُرِق باب غرفته عدة طرقات، قام على إثرها ليفتحه ويجد في مواجهته قائد الحرس، الذي ما إن رآه على حالته هذه، إذ كان جسده لا يزال يتصبب عرقًا من أثر ذلك الكابوس، حتى

سأله في حين تعلوه وجهه علامات الفزع: هل أنت بخيريا سيدي؟ هل أصابك شيء؟

"علي" بكل هدوء: لا لا... لا تقلق أنا بخير، لكن لم أتيتَ إليَّ في هذا الوقت؟ هل طرأ أمرٌ ما؟

قائد الحرس: لقد قدمت إليك لإخبارك بأن عددًا من القادة ينتظرون سيادتك في الغرفة رقم خمسة.

"علي" وما زالت علامات النعاس على وجهه: حسنًا، أعطني خمس دقائق وسأكون جاهزًا.

وبالفعل، لم يمض أكثرمن خمس دقائق إلا وخرج بعدها "علي" من غرفته متوجهًا نحو تلك الغرفة، وعيناه يملؤهما العزم على الأخذ بالثأر لكلِّ من قُتلِ في تلك المذبحة وغيرها من المجازر التي ارتُكبِت بحق أهله في

فلسطين. وبمجرد دخوله تلك الغرفة، سلم على الحاضرين، واعتذر لهم عن تأخره.

كانت الغرفة ذات ألوان داكنة، تحتوي على نافذة واحدة و اقعة في الجدار الشرقي منها، وبجوارها قد رُصَّتْ عدة دواليب موضوعة بها أوراق بالغة الأهمية والسرية، في حين تتوسطها طاولة موضوعة عليها خريطة ضخمة للعالم، بها أهم و أكبر المصالح والأهداف التابعة لإسرائيل والدول المؤيدة لها، التي من الممكن استهدافها في خلال المرحلة القادمة، وبجوارها ملف ضخم لأهم الشخصيات المقترحة لتنفيذ عمليات الاغتيال ضدها.

وقد جلس حول تلك الطاولة كلٌّ من "أبو إياد" و"كمال عدوان" و"محمد يوسف النجار" و"أبو داود".



كان "كمال عدوان" ممتلئ الوجه قليلًا، ذا نظرات جادة وحادة في آنٍ واحد، مما يجعلها تبعث بالرهبة والهيبة في قلوب من يراها، وللوهلة الأولى تشعر بأنه حاملٌ همَّ أمةٍ بأكملها، يملك حاجبين كثيفين وشاربًا خفيفًا نسبيًا وشعرًا مجعدًا. في حين أن "النجار" كان وجهه مائلًا إلى النحافة بالمقارنة بـ"كمال عدوان"، كما كان له حاجبان خفيفان نسبيًّا وشارب كثيف وشعر ناعم وغزير، وبالنظر إلى عينيه تجدهما دائمًا مرهقتين وتشعر بأنهما كما لو كانتا ترغبان بالنعاس، ربما يكون ذلك من ضخامة ما كُلِّف به من أعمال ومهمات. أما عن "أبو داود" الذي كان أحد مُشاركي كلٍّ من "علي حسن سلامة" و"غازي الحسيني" في الدورة الأمنية المتقدمة التي أقيمت في القاهرة، فقد كان ذا حاجبين وشارب كثيفين، وشعر

أسود ناعم، ممسكًا بالسيجارة بإحدى يديه ومرتديًا نظارة طبية.

وبعد لحظات من الصمت في بداية الجلسة، بدأ "أبو إياد" الحديث قائلًا: بداية وقبل أي شيء، دعونا نقفْ دقيقة حدادًا على من ضحوا بأرواحهم في طريق النضال سعيًا إلى تحرير الوطن، والذين كان آخرهم من سقطوا في ميونخ.

على الفور وقف الجميع احترامًا لشهدائهم وقتلاهم، وبعد انتهاء الدقيقة، جلس الجميع وعاد الصمت سيدَ الموقف مرة أخرى، لكن ما كادت تمر لحظات منه حتى قطعها "كمال عدوان" وعلامات الحزن قد ارتسمت على

وجهه قائلًا: ولكني كنت أتمنى أن تُكلَّل العملية بالنجاح التام ويعود أبطالها جميعًا سالمين على قيد الحياة.

"علي": بالتأكيد، كلنا نشاركك الشعور نفسه يا كمال، لكن ما يواسينا ويخفف عنا حزننا ولو قليلًا هو إدراكنا أن تضحية أبطال العملية لم تذهب هباءً، فقد حققت تلك العملية صدًى إعلاميًّا جبارًا اعترف به الجميع، العدو قبل الصديق، ويكفي أنه بعد أن كان العالم أجمع -إلا ما ندر- مقتنعًا بأنه لا وجود لنا ولا حق لنا في العيش، بات الجميع الآن مدركًا تمامَ الإدراك أن شعبنا له قضية عادلة لن يتنازل عن الدفاع عنها مهما كانت الوسائل والطرق المستخدمة في ذلك.

"أبو إياد": أصبت يا "أبو حسن" فيما قلت، والآن لنتحدث عما سوف ننجزه في المستقبل من عمليات، فما هي اقتراحاتكم؟

"علي حسن سلامة" وعلامات الجدية قد ارتسمت على وجهه: لقد تعاونت مع عددٍ من القادة في التخطيط لتنفيذ عملية اغتيال سوف تسمع عن أخبارها في خلال الساعات القادمة.

"أبو إياد" مذهولًا: الساعات القادمة! ما هذه السرعة؟! وما هذه العملية؟

"علي" بثقة: اطرق الحديد وهو ساخن يا "أبو إياد"! أما عن العملية، فكل ما يمكنني قوله إنها ستكون مفاجأة



للجميع، وبإذن الله ستكون الأولى من نوعها في تاريخ الصراع.

"أبو إياد": شوقتني يا "أبو حسن".

"علي" وقد ارتسمت الابتسامة على شفتيه: اصبر وستعرف كل شيء في وقته.

في تلك اللحظة، تذكر "أبو إياد" تلك الأيام التي كان فيها "علي" متدربًا عنده، ودائمًا ما كان يقول له هذه الجملة إذا ما سأله عن شيء، فانفجر "أبو إياد" من الضحك قائلًا بينه وبين نفسه: "حقًّا الدنيا دوارة! يبدو أنك انتظرتَ طويلًا كي تردَّها إليَّ أيُّها الثعلب الصغير (يقصد علي حسن سلامة)". ثم وجه حديثه إلى "علي" قائلًا:

حسنًا، كما تشاء. هل لدى أحد آخر أي فكرة من الممكن مناقشتها؟

"أبو داود": عندي فكرة أعتقد أنها مجنونة قليلًا.

"أبو أياد": هات ما عندك.

"أبو داود": الفكرة باختصار هي تنفيذ عملية واحدة، يكون مسرح عملياتها الكوكب بأكمله دون أي استثناء، الهدف الرئيسي منها هو نشر الذعر والخوف في قلب كل صهيوني، وذلك من خلال إرسال طرود ورسائل مفخخة إلى السفارات والمقار الحكومية الإسرائيلية حول العالم معنونة بأسماء أهم العاملين بها، ولا يهم إذا ما نجحت الطرود في اغتيالهم أم لا، وإنما كل ما يهمنا في هذه العملية هو إيصال رسالتنا إليهم بأنهم لم يعودوا في مأمن

في أي مكان في العالم، ما داموا لا يزالون مُصرِّين على احتلال أرضنا وقتل أهلنا.

أُعجِب "أبو إياد" بفكرة العملية، فسأل الحاضرين قائلًا: من منكم موافق على هذه الفكرة؟

أبدى الجميع إعجابهم بالفكرة وموافقتهم عليها، فأكمل "أبو إياد" قائلًا: حسنًا يا "أبو داود"، نسِّق مع "كمال" و"النجار" و"أبو حسن" للوصول بهذه الفكرة إلى أفضل نتيجةٍ ممكنة، ولننتظر الساعات القادمة لمعرفة مفاجأة "أبو حسن" لنا.

فضحك الجميع من قوله.

وبالفعل، لم تمض عدة ساعات حتى وقعت العملية التي تحدث عنها "علي حسن سلامة". فتحديدًا بعد ثلاثة أيام

من عملية ميونخ، تمكن أحد عناصر أيلول الأسود، ويُدعى "محمد أحمد"، من اغتيال "زادوك أوفير" ضابط المخابرات الإسرائيلية، الذي يشغل منصب سكرتير أول السفارة الإسرائيلية في بروكسل، كنوع من الغطاء على عمله الحقيقي. إذ تم استدراجه في مقهى "برنيس"، وكان الفلسطيني عبارة عن عميل مزدوج و"أوفير" هو ضابط الحالة الخاص به، وكانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يتم فيها اغتيال ضابط مخابرات إسرائيلية من النقطة صفر.

وما كادت إسرائيل تفيق من عمليتَيْ ميونخ وبروكسل، حتى فوجئ أعضاء الحكومة الإسرائيلية بدق الموت أبوابهم، ليس في فلسطين المحتلة فحسب، و إنما في كل أنحاء العالم تصديقًا على قول "أبو داود". ففي السادس

عشر من سبتمبر، تم إرسال أربعة وعشرين طردًا محملًا بالمتفجرات إلى أمستردام، ومنها تم توزيعها على الأماكن المحددة لها على سطح الكوكب، لتنطلق بذلك موجة الرعب المخطط لها، إذ تم العثور على أربعة طرود في أحد مكاتب البريد في لندن، وبعدها بساعات تم اكتشاف اثنين مُرسلَيْن إلى السفارة الإسرائيلية في باريس. وبمرور الساعات، بدأت الدبلوماسية الإسرائيلية وموظفو البريد في أنحاء العالم كله في اكتشاف تلك الطرود تباعًا. وعلى الرغم من الإمساك بمعظم الطرود قبل انفجارها، فقد أثمرت في النهاية عن اغتيال "د. آمي شيشوري"، خبير الاقتصاد الزراعي في السفارة الإسرائيلية بلندن في التاسع عشر من سبتمبر.



في تلك الأثناء، كانت الضغوط قد بدأت بالتزايد على "هاراري" وفريقه، فأعضاء أيلول الأسود ضرباتهم باتت تُسدَّد بلا هوادة، في حين لم يتحرك "هاراري" ورجاله خطوة واحدة في تفعيل عملية "غضب الرب"، ولذا أتته التعليمات من القيادة العليا بصورة حازمة وصارمة، بضرورة اغتيال أي فرد منهم لحفظ ما تبقى من ماء وجه إسرائيل.

وبناءً عليه، بدأ "هاراري" بدراسة ملفات الشخصيات المتاحة أمامه لاختيار أسهل الأهداف منها، وبعد عدة أيام من البحث والتنقيب، وقع الاختيار على "عبد الواحد زعتر" رقم تسعة بقائمة الموت، والبالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا، والذي بالإضافة إلى أنه كان المساعد الأول لـ"علي حسن سلامة" في أوروبا، فقد عمل بصورة رسمية

مترجمًا في المكتب الشعبي الليبي كغطاء على عمله الحقيقي.

وعلى مهل، وضعت خطط المراقبة للهدف، التي من خلالها تم تحديد الميعاد المثالي للتنفيذ الذي تقرر أن يكون في السادس عشر من أكتوبر. وفي مساء ذلك اليوم، وتحديدًا في الساعة العاشرة والنصف مساءً، عاد "زعتر" مرهقًا إلى منزله بعد يوم شاق في عمله، وفي أثناء انتظاره المصعد الكهربائي، وقف خلفه رجلان، وبكل هدوء وبرود أعصاب سحبا مسدسيهما وصوبا ناحيته ثم ضغطا على الزناد من مسافة قريبة، مُطلِقَين اثنتي عشرة طلقة أردته قتيلًا على الفور.

وبعد أن تأكد الاثنان من إتمام مهمتهما، انطلقا بأقصى

سرعتهما نحو باب المنزل حيث كانت تنتظرهما سيارة

خضراء، يجلس في مقعدها الأمامي "مايك هاراري"

بنفسه مع عميلة الموساد الشرسة ورفيقة طفولته

"تامارا". وكنوعٍ من التمويه، كانا يتبادلان القبلات بحرارةٍ

شديدة. وبمجرد انحشار القاتلَيْن في الكنبة الخلفية،

انطلق "هاراري" بأقصى سرعة.

وعلى مسافة ثلاث مئة وعشرين مترًا من مسرح العملية،

بدَّل فريق الاغتيال السيارة، ومن ثَم سافروا عائدين إلى

تل أبيب للاحتفال بنجاح أولى عمليات "غضب الرب".

في الوقت نفسه ولكن في قلب بيروت، كان "علي" جالسًا

مع كلٍّ من زوجته "أم حسن" و ابنه الصغير "حسن" في

منزله في إجازة قلما تتكرر، نتيجةً لظروف عمله الصعبة التي لا تسمح له بكثير من الإجازات.

وبعد انتهاء الجميع من تناول وجبة الغداء، جلس كُلٌّ من "علي" وزوجته لشرب الشاي، في حين كان "حسن" يتسلى بألعابه في غرفته. وفي أثناء ذلك، سألته زوجته قائلة: عزيزي، أما آن لك أن ترتاح ولو قليلًا، فإنني و ابنك نشتاق إليك كثيرًا ولا نراك حولنا إلا نادرًا.

عندها ردَّ عليها "علي" بكل هدوء: يا أم حسن، يا زوجتي الحبيبة، أعرف أنني في كثير من الأحيان أُقصِّر في حقك وحق ابننا، لكنني منذ أن تقدمتُ إليكِ قبل بضع سنوات لطلب الزواج بك، و أنتِ تعرفين جيدًا طبيعة عملي وما يحيط به من مخاطر، وكذا ما يتطلبه من تضحيات. لذا

لا تلوميني الآن على تقصيري معكما، وبخاصة لأنكِ

تعلمين علم اليقين أن هذا التقصير ليس بيدي، وإنما هو

أحد الأثمان التي ندفعها يوميًّا في سبيل تحرير وطننا.

"أم حسن": والله إني لأعرف جيدًا كل كلمة تقولها، وإني

على أتم الاستعداد للتضحية والتحمل، لكن من لا

يستطيع ولا يفهم ذلك هو حَسَن ولدك، الذي دائمًا ما

يسأل عنك كل ليلة، وكلماته تقطعني من داخلي.

"علي": إذًا أريحي نفسك وأريحيه وأخبريه بالحقيقة،

أخبريه أن والده ومن معه يسعون جاهدين إلى تحرير

وتطهير وطنه من دنس الاحتلال وإعادة ما سلب منه من

أمجاد، وأعلميه جيدًا أنه لا طريق التحرير يُفرَش



بالحرير، ولا طريق المجد يُفرَش بالورد، و إنما بالبذل والعطاء والدماء.

وما كاد "علي" ينهي حديثه، حتى دق جرس الباب، أرادت الزوجة النهوض لفتح الباب إلا أن الزوج شعر بأن الطارق قد قدم لأجله خصيصًا، فضغط على كتفيها ضغطة خفية مشيرًا إليها بالجلوس، ثم توجه ناحية الباب الذي ما إن فتحه حتى وجد صديقه "غازي" في مواجهته وقد علت وجهه علامات الغضب الممزوج بالحزن.

عندها شعر "علي" بأن صديقه قد أتى حاملًا إليه خبرًا كارثيًّا، فقال له متمنيًا من كل قلبه أن يخيب ظنه: ما الأمر يا غازي؟ ماذا بك؟

"غازي" وما زالت علامات الحزن الممزوج بالغضب عالقة في وجهه: إنه عبد الواحد زعتر، منذ ما يقارب الساعة اغتاله الموساد باثنتي عشرة طلقة.

عندها أصيب "علي" بصدمة أخرسته عدة لحظات، إلا أنه سرعان ما قطعها بسؤاله "غازي" بكل هدوء: وماذا عن بقية القادة؟ هل بلغهم هذا الخبر؟

"غازي": بكل تأكيد، وهم جميعًا في انتظارك الآن داخل مقر القيادة للتشاور حول الأمر وإيجاد الرد المناسب له.

"علي": حسنًا، أعطني بضع دقائق أجهز فيها نفسي وأودع أهلي وسأكون معك.

"غازي": حسنًا، أنا في انتظارك.



وبمجرد انتهاء "علي" من ارتداء ملابسه وتوديعه أهله، انطلق نحو مقر القيادة حيث التقى ببقية القادة في أيلول الأسود لدراسة الوضع والتوصل إلى الرد المناسب على تلك العملية، هذا بالطبع بعدما أصدرت المنظمة بيانًا تتوعَّد فيه بالرد على مقتل "زعتر".

وبعد أكثر من شهر على عملية الاغتيال، وتحديدًا في يوم الثامن من ديسمبر وفي أثناء تحضير قادة أيلول الأسود للعملية الانتقامية، وقعت الضربة الثانية لفريق "هاراري"، لكن هذه المرة في باريس، وكان الهدف هو الدكتور "محمود الهمشري" ممثل منظمة التحرير وحركة فتح في باريس، وقد بدأت العملية بمراقبة نسبية لعادات "الهمشري" بعد التأكد من أنه لا يعيش معه في منزله بباريس أي أحد، ما جعل صيده سهلًا لأي طرف، ثم

تنكَّر أحد أعضاء الفريق على هيئة صحفي إيطالي، وذلك للاتصال بـ"الهمشري" وإخباره برغبته في إجراء حوار صحفي معه، وفي خلال محادثاتهما الهاتفية، اتَّفقا على اللقاء في اليوم التالي.

وفي الموعد المحدد باليوم التالي، خرج "الهمشري" للقاء الصحفي، تاركًا منزله خاليًا من أي أحد، في فرصة ذهبية من الصعب أن تتكرر لـ"هاراري" ورجاله مرة أخرى، فقرر استغلالها خير استغلال، إذ دفع فريقه التكنولوجي الخاص لتثبيت قنبلة في سماعة التليفون الخاص بالمنزل.

وبعد أربع وعشرين ساعة، وفيما كان الهمشري موجودًا وحده بالمنزل كالعادة، رن الهاتف، فرد "الهمشري" قائلًا:

ألو، من معي؟

الجانب الآخر من المكالمة: ألو، دكتور الهمشري معي؟

"الهمشري": أجل، مَن حضرتك؟

الجانب الآخر من المكالمة: مع حضرتك الصحفي الذي قابلك أمس.

"الهمشري" مبتسمًا: آه، أهلًا وسهلًا بحضرتك، تحت أمرك.

الصحفي بطريقة باردة: هل أنت فعلًا الدكتور الهمشري؟

تعجب "الهمشري" من السؤال، لكنه أجابه على كل حال قائلًا: ما هذا السؤال الغريب؟ طبعًا أنا.

وما كاد "الهمشري" يكمل جملته حتى سمع صوت صفارة عالية وطويلة انفجرت على إثرها سماعة التليفون، لتصيبه إصابة مميتة توفي على إثرها.

وبينما كان قادة أيلول الأسود عاكفين على وضع اللمسات الأخيرة لعمليتهم الانتقامية، بلغهم خبر استشهاد "الهمشري" في باريس، مما زادهم إصرارًا على تنفيذ ما خططوا له، ليس انتقامًا للقائد "عبد الواحد زعتر" فحسب، بل و"للهمشري" أيضًا.

ويبدو أن "سلامة" ومن معه أرادوا ألا تنتظر الحكومة الإسرائيلية ردَّهم أكثر من ذلك، ففي الثامن والعشرين من ديسمبر، وفيما كان يتم إعداد ولي العهد لتولي منصبه الجديد حاكمًا تايلاند، أقام السفير الإسرائيلي في



بانكوك، "ريهافام أمير" وزوجته حفلًا حضره سفير إسرائيل بكمبوديا "سيمون أثمور" وجمعٌ كبيرٌ من الدبلوماسيين.

وبهدوء شديد، امتزج بالحاضرين رجلان أنيقان، لكنهما مع ذلك غريبان، فتحا الباب لرجلين آخرين أحضرا معهما مسدسات آلية، وذلك لأجل تهديد الجمع الدبلوماسي وأخذ العناصر الإسرائيلية رهائن، هذا بالطبع بعدما أرسلوا بقية الحاضرين إلى منازلهم ثم تحصنوا برهائنهم في الطابق الثاني للمنزل. وعرَّف الفدائيون أنفسهم بأنهم من "أيلول الأسود"، وأن مطلبهم الرئيسي هو إطلاق سراح ستة وثلاثين من رفاقهم في النضال، وأعلن قائدهم أنه إذا لم يتم إطلاق سراح

أصدقائهم أو إذا حاولت شرطة تايلاند اقتحام السفارة فسيتم نسف مقر السفارة بالكامل بمن فيها.

ولكن بعد تسع عشرة ساعة، ونظرًا إلى ملاقاة رجال أيلول الأسود تهديدًا جديًا من جنرالات تايلاند، وكذا ضغوطًا شديدة من سفير مصر في تايلاند، اضطر أعضاء فريق أيلول الأسود إلى إلغاء العملية والمغادرة إلى القاهرة.

وبذلك فشلت عملية تايلاند، واطمأن الجميع في الموساد بأن انتقام أيلول الأسود لمقتل رجالهم وقادتهم بات في مهب الريح. لذا سافر ضابط الموساد المخضرم "باروخ كوهين" في السادس والعشرين من يناير عام 1973 م إلى إسبانيا، للفوز ببعض الطلبة الفلسطينيين كمصدر

للمعلومات، وكذا معرفة بعض الخلفيات والمعلومات عن منظمة "أيلول الأسود". وبمجرد وصوله إلى إسبانيا، تواصل معه أحد الطلبة و اتفقا على اللقاء في مقهى "جر اندفيا"، إذ استمر اللقاء بينهما ما يزيد على ساعتين، غادرا على إثرهما المقهى المذكور، إلا أنه ما إن تحركا بعيدًا عنه عدة خطوات حتى ظهر أمامهما شخصان اعترضا طريقهما، وبخطوات سريعة أشهر الرجلان سلاحهما ثم صوباه باتجاه "كوهين"، ومن ثم ضغطا على الزناد في آنٍ واحدٍ مطلقين عليه عددًا من الطلقات أردته قتيلًا على الفور، لتعلن "أيلول الأسود" بعدها في بيان لها نجاحها في اغتيال "باروخ كوهين"، أحد الضباط المسئولين عن اغتيال كلٍّ من "عبد الواحد زعتر" و"د. محمود الهمشري"، وأن عملية تايلاند لم تكن في الحقيقة

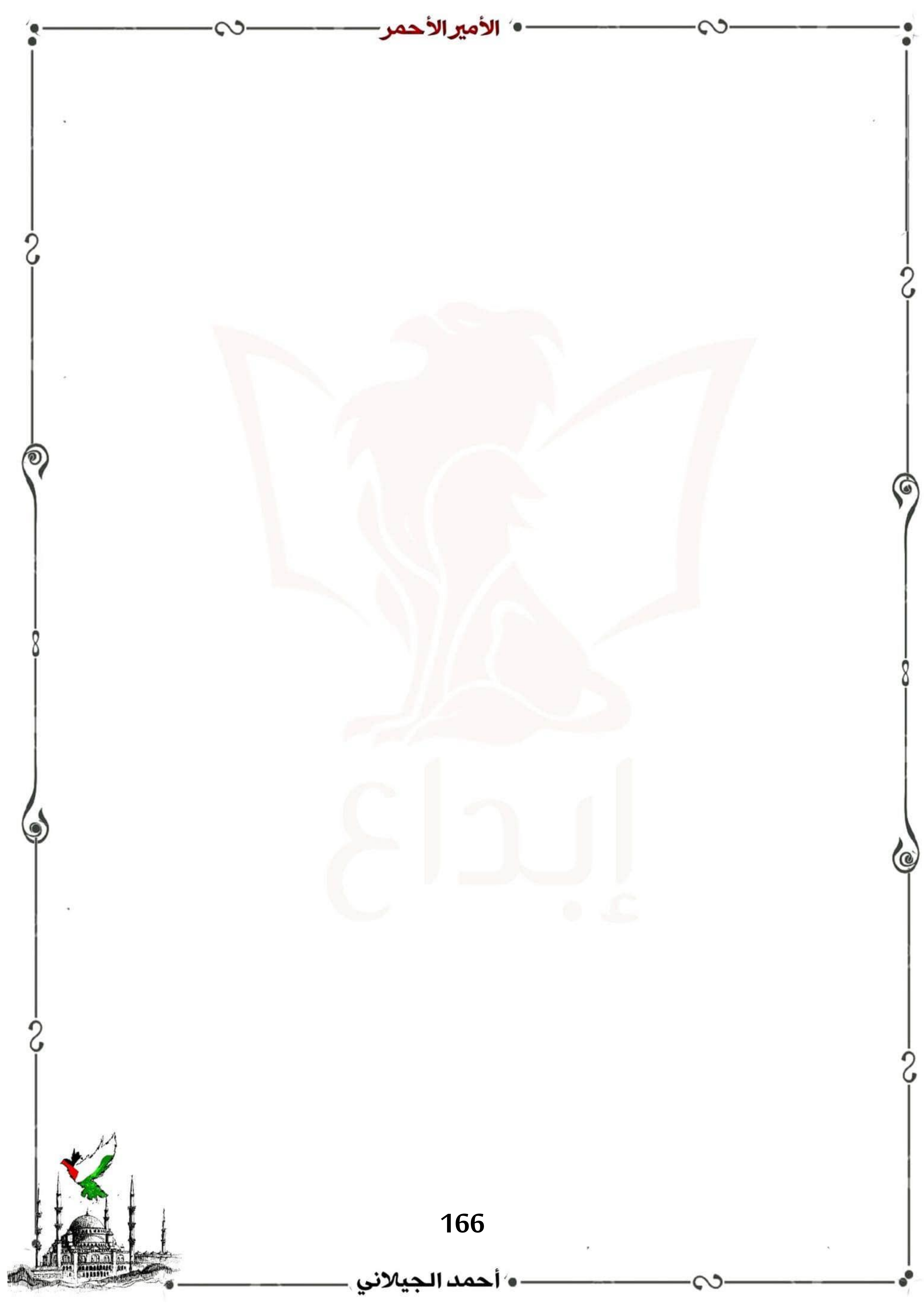
إلا مجرد عملية خداعية كان الهدف منها هو لفت الانتباه عن التحضير لعملية "باروخ كوهين".

وفي الأول من أبريل عام 1973 م، وفي أثناء تشاور قادة الموساد حول تنفيذ عملية ضرب مصنع أسلحة فلسطيني أقيم حديثًا بالقرب من مخيم صبرا ببيروت، وصل إليهم خبر القبض على خمسة فلسطينيين في إيطاليا تابعين لأيلول الأسود، كانوا يُعِدون لعملية فدائية بفرع شركة العال الإسرائيلية بروما.

عندها أصيب قادة الموساد بالجنون، فأصدر "موشي ديان" أوامره بإلغاء عملية مصنع الأسلحة في بيروت، وتقرر التخطيط لعملية "نبع الشباب".

ولكن ماذا تكون عملية "نبع الشباب" هذه؟





(8)

نبع الشباب

هي عملية تم التخطيط لها من قبل الموساد، حملت أسماء عدة، أهمها: "نبع الشباب" و"فردان". كان الهدف منها هو اغتيال أربعة من أهم قيادات أيلول الأسود، وكذا تفجير مقر الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، مما يجعلها بمثابة ضربة قاضية للفصائل الفلسطينية بصفة عامة، و أيلول الأسود بصفة خاصة.

وقد بدأت أحداث هذه العملية في قلب العاصمة الصاخبة بيروت، وبالتحديد في فندق سندس. كان هذا عن المكان، أما عن الزمان فكان تحديدًا الثالث من أبريل عام 1973 م، الساعة الحادية عشر صباحًا. كما أشارت

ساعة الحائط خلف موظف الاستقبال، إذ دخل سائح إنجليزي أبيض البشرة، أزرق العينين، وشعره مائل إلى الاحمرار.

وكالعادة بدأ موظف الاستقبال الحديث والابتسامة تعلو وجهه قائلًا: أهلًا بحضرتك في فندق سندس، أي خدمة؟

السائح: أريد حجز غرفة.

الموظف: تحت أمرك، لكن هل من الممكن أن تسمح لي بأخذ بعض بياناتك الخاصة؟

السائح: حسنًا، لا مشكلة.

الموظف: حسنًا، ما اسم حضرتك؟

السائح: ديتور إلتور.

الموظف: المهنة؟



السائح: رجل أعمال.

الموظف: ما المدة التي ستقضيها في الفندق؟

السائح: ثلاثة أيام، وربما ثلاثين.

في تلك اللحظة، أتى عامل الفندق لحمل حقائب "إلتور".

الموظف: حسنًا يا سيدي، تم الحجز، لكن لاستكمال البيانات أرجو من حضرتك ترك جواز سفرك هنا.

فتركه له، ثم استدار تاركًا إياه للصعود إلى غرفته مع حامل الحقائب، إلا أن الموظف استوقفه لسؤاله عن التوقيع، فرد عليه السائح: ليس مهما، ربما في المساء.

وفي المساء، وقف السائح الإنجليزي "إلتور" أمام الموظف لسؤاله: هل يوجد محلات قريبة لبيع أدوات الصيد؟

الموظف: نعم يا سيدي، لكن لماذا؟

"إلتور": أنا هاوٍ للصيد، لكني أهواه ليلًا فقط.

تعجب الموظف من هواية السائح الغريبة، فسأله بفضول: غريبة! أتصطاد ليلًا فقط؟

"إلتور": نعم، إنها هواية غريبة، لكني أجد متعتي في ذلك دائمًا.

وعلى الرغم من أن علامات الفضول الممزوجة بالاستغراب والدهشة لم تغادروجه الموظف من هواية السائح الغريبة، فعلى كل حال دلَّهُ على أقرب متاجر أدوات الصيد في المنطقة.

ومنذ ذلك اليوم، داوم "إلتور" على الخروج مساءً في كل ليلة من الفندق حاملًا صنارته والسيرعلى الشاطئ في

الظلام حتى منطقة تسمَّى مغارة الحمام لممارسة هوايته، ثم العودة مرة أخرى إلى الفندق في آخر الليل.

وبعد ثلاثة أيام من وصول هذا السائح الغريب، وتحديدًا في الساعة الخامسة مساءً، وصل سائح إنجليزي آخر يُدعى "آندرو"، وكان يبدو كرجلٍ إنجليزيٍّ تقليدي، كلاسيكي المظهر، متأنق ومتحفظ في كلامه، لكنه كان على كل الأحوال يتحدث.

وبعد مرور ساعتين من وصول "آندرو"، وصل سائح آخر، لكنه كان بلجيكيًّا هذه المرة ويُدعى "شارل بوسار"، وكان قادمًا في رحلةٍ من روما، ويبدو في الأربعين من عمره، ولم يدُرْ بينه هو الآخر وبين موظف الاستقبال حوار غير مألوف، شأنه شأن سابقه.

وعند بلوغ الساعة التاسعة مساءً من اليوم نفسه، وصل سائح إنجليزي ثالث اسمه "جورج ألوار"، لم يتحدث بأي كلمة مع أيٍّ من العاملين بالفندق، وعندما أراد موظف الاستقبال سؤاله عن اسمه، ألقى له بجواز سفره ثم طلب مفتاح غرفته التي صعد إليها دون كلمة واحدة، ولا حتى مع الخادم الذي قاده إليها، وكان يبدو في الثلاثين من عمره.

وفي منتصف الليل، نزل السائح الصامت إلى موظف الاستقبال لسؤاله: كيف يمكنني أن أذهب إلى شاطئ البحر؟

الموظف متعجبًا: الآن يا سيدي؟!

"ألوار": هل يوجد خطر يمنع ذلك؟

الموظف: لا، لكن الوقت متأخر، وعمومًا إليك الطريق.

وبالفعل وصف موظف الاستقبال الطريق للسائح الإنجليزي "ألوار"، الذي خرج من الفندق متجهًا إلى شاطئ البحر.

لم تكن توجد أي عَلاقة تربط هؤلاء السياح بعضهم ببعض، أو على الأقل هذا ما استنتجه مَنْ حولهم من عاملين وموظفين بالفندق، فطوال مدة وجودهم لم يحدث أن التقى أحدهم بالآخر ولو حتى من قبيل الصدفة، لكن على الرغم من ذلك، فقد اشتركوا جميعًا في شيءٍ واحدٍ فقط، ألا وهو التجول في شوارع بيروت سيرًا على الأقدام، والتجول بصفة خاصة في شارع

الخرطوم أكثر من مرة في اليوم الواحد، بحيث تتم تغطيته على مدار الساعة.

وقد كان ذلك الشارع هو الهدف الرئيسي لوجود هؤلاء السياح في بيروت في ذلك الوقت تحديدًا، فهم لم يكونوا في الحقيقة سياحًا بالمرة، وإنما كانوا جميعًا عملاء تابعين للموساد، وقد تلقى كلٌّ منهم على حدة تعليمات محددة بالسفر إلى بيروت والوصول بالطريقة التي وصلوا بها ودراسة شارع الخرطوم بصورة دقيقة، أهم شارع بالنسبة إليهم في لبنان كله. لكن لماذا؟

لسبب بسيط جدًّا، وهو أن مكاتب قيادة الجبهة الديمقراطية الفلسطينية تقع جميعها في هذا الشارع،



وكذا مساكن بعض فدائيِّي منظمة أيلول الأسود وقادة فتح.

كان شارع الخرطوم طويلًا ممتدًّا إلى مسافة بعيدة تنتهي بملعبٍ ونادٍ رياضيٍّ مقام على أحدث طراز، لذا فإنهم بعد انتهائهم من كل جولة كانوا يلتقون في هذا الملعب، ليس للعب الكرة أو البولينج بل لمراقبة مبنى قيادة الجبهة الديمقراطية، وبعد انتهاء نوبة مراقبة كل فرد منهم، كان يعود أدراجه إلى الفندق المقيم فيه، ويبقى البقية بحيث لا يشك أحدٌ في أن أحدهم مع الآخر.

كان يوجد أيضًا شارعٌ آخرُ لا بد لهؤلاء الجواسيس من مراقبته غير شارع الخرطوم، كان اسمه شارع فردان، وهذا الشارع بالتحديد كان يقيم به الأعضاء المطلوبون

من فتح ومنظمة أيلول الأسود، وكان المطلوبون هم (علي

حسن سلامة – كمال عدوان – كمال ناصر – أبو يوسف

النجار)، وكانوا جميعًا مقيمين بشارع فردان، إلا أن الذي

لم يكن العملاء متأكدين من إقامته في هذا الشارع هو

"علي حسن سلامة"، لكن ربما يكون موجودًا وتُكلَّل

العملية بالنجاح ويتم القضاء على الأربعة، وبخاصة "علي

حسن سلامة".

وفي السابع من أبريل، ذهب السياح الأربعة -أو بوصف

أكثر دقة العملاء الأربعة- بصفة منفصلة إلى مكتبي

"آفيس" و"ليناكار" (وهما وكالتان كانتا تؤجران السيارات

الفخمة للسياح فقط)، وذلك لاستئجار عدد من سيارات

الدفع الرباعي بإجمالي عدد أربع سيارات، ولمَّا سألهم

موظفو الوكالتين عن سبب اختيارهم تلك النوعية

تحديدًا من السيارات، كانت الإجابة واحدة، وإن كانت بصيغ مختلفة: للنزهة بها في المناطق الجبلية وارتياد لبنان من جنوبه إلى شماله.

سجَّل الموظفون اسم كل سائح من و اقع جوازات السفر الإنجليزية والبلجيكية، وطلب الموظف المسئول من كلِّ فردٍ منهم -لإتمام التعاقد- دفعَ مبلغ مئتَي دولار تأمينًا للسيارة، فدفع كل منهم مبلغ التأمين بسهولة، وتجمعت السيارات الأربع بحوزتهم، إذ بدؤوا التحرك بها وفق الخطة، والتدرب على المناطق التي ستستخدم فيها هذه السيارات فيما بعد.

على صعيدٍ آخر، تقرر بصورة مفاجئة أن يكون مقر جلسات اللجنة المركزية لمنظمة التحرير في بيروت يومي

التاسع والعاشر من إبريل، بالقرب من مقر سكن القادة الثلاثة بدلًا من دمشق، وقد ضمت اللجنة كلًّا من "ياسر عرفات" و"صلاح خلف" و"كمال عدوان" و"كمال ناصر" و"محمد يوسف النجار".

وفي أثناء سيرهم نحو مقر الاجتماع، لاحظ "عرفات" ضعف الوجود الأمني حول مقرِّ سكن القادة الثلاثة، إذ اقتصر تأمين ثلاثتهم على اثنين فقط موجودين على مدخل المنزل مسلحين ببنادق كلاشينكوف، فقال لهم مازحًا وجادًّا في الوقت نفسه: أنتم فعلًا غير حريصين! وعمَّا قريبٍ ستهبط مروحية إسرائيلية أمام بيتكم وتخطفكم.



عندها ضحك الثلاثة مما قال "عرفات"، وعقب "محمد يوسف النجار" قائلًا: وماذا نفعل؟ إننا نخشى على مشاعر جيراننا ولا نريد إحراج ضيوفهم.

وبعد الانتهاء من جلسة اليوم الأول التي انتهت متأخِّرة، ذهب "صلاح خلف" إلى "كمال ناصر" للمبيت عنده تلك الليلة، نظرًا إلى كونه هو الوحيد الأعزب ضمن القادة الثلاثة. وبعد أن استراح الاثنان، نظر "أبو إياد" إلى "كمال ناصر" الذي كان جالسًا على مكتبه يقرأ أحد الدواوين الشعرية، في حين كان بجواره مسدس محشو بالذخيرة، فقال له مازحًا: والله يا كمال إني لأراك شاعرًا فقط، ولم يكن لك أن تستعمل سلاحًا قط في حياتك.

نظر إليه "كمال ناصر" وعلى وجهه ابتسامة خفيفة، كما لو كان يقول له أنه ليس أولَ من قال له ذلك.

فأكمل "أبو إياد" كلامَه سائلًا: ولكن بحق يا كمال، كيف لشاعرٍ مثلِك أن يوائم بين الكفاح المسلح وكتابة الشعر؟

"كمال ناصر" باسمًا: يا صديقي، إنني لأعاني في كتابة القصيدة مثلما أعاني انتظار لحظة الصفر لعملية فدائية.

فابتسم "أبو إياد" مما قاله صديقه، ثم قال له: حسنًا، سأتركك الآن لهواياتك وسأخلد أنا إلى النوم استعدادًا للغد، تصبح على خير يا كمال.

"كمال ناصر": تصبح على خير يا "أبو إياد".



وبينما كان "أبو إياد" غارقًا في نومه، مرت ساعات الليل الساعة تلو الأخرى، لتشرق شمس العاشر من إبريل على أحد الموانئ العسكرية لدولة الاحتلال، إذ كان يتم تجهيز واحدة من القوافل البحرية الإسرائيلية، وبالفعل بمجرد أن دقت الساعة السادسة صباحًا، انطلقت القافلة المكوَّنة من سفينتي استطلاع -موجود داخل إحديهما "مايك هاراري" بنفسه لمتابعة تحرك العملية- وسفينة اعتراض وتسعة زوارق كان بداخل أحدِها المجموعة المكلفة بتدمير مبنى الجبهة الديمقراطية، في حين ضمَّ آخر بين جدرانه المجموعة المكلَّفة باغتيال القادة الأربعة، وفي الزورق الأخير -وفيما كان الجميع في عرض البحر- خرجت من إحدى دورات المياه فتاة شقراء



ذات جمال خاطف للأبصار، لتتمشى بدلالٍ واضحٍ بين الجنود مما زادها جمالًا، فيغازلونها وتلاوعهم.

يحاولون استنطاقها إلا أنها تأبى في كلِّ مرة، مما زادهم رغبة فيها، وفي حين كان الجنود مشغولين بمغازلتها، تساءل أحدهم: أين قائدُنا كي يمرح معنا قليلًا مع هذه الفتاة؟

وفجأةً ودون مقدمات، نطقت الفتاة الشديدة الجمال بصوت رجولي خشن قائلة له: فيمَ تريد قائدك وهو و اقف أمامك؟

صُدِم الجميع مما هو أمامهم، فهذه الفتاة الشديدة الجمال لم تكن سوى "إيهود باراك" قائد وحدة الاغتيال ضمن العملية.

ثم استكمل "باراك" حديثه معنفًا جنوده بعد أن خلع باروكته: فلتحمدوا ربكم على أنني أنا هذه الفتاة وليس أي أحدٍ آخر، فلو كانت توجد فتاة حقيقية غريبة على أرض الزَّورق لقتلتكم جميعًا قبل أن يسحب أحد منكم سلاحه، وكيف لا وقد كان كل تفكيركم مُنصبًّا في مَن يضاجعها أولًا؟!

عندها شعر الجميع بالخزي، فسأله أحدهم: ولكن لماذا سيادتك ترتدي هذه الملابس؟

"باراك" بوجه جاد: هذا جزء من العملية يا مغفل.

ثم أكمل أحدهم سائلًا: ولكن إذا كان تنكرك جزءًا من العملية، فلم سيادتك تتنكرن الآن وباقٍ على العملية عدة ساعات؟



"باراك": لأنني أردت اختبار مدى قوة تنكُّري، لأني لو استطعت خداعكم و أنتم رجالي، فبالتأكيد سوف أخدع هؤلاء الهمج المُسمَّيْن العرب.

بالعودة إلى الوضع في بيروت، فبعد انتهاء جلسة ما قبل الظهيرة لليوم العاشر من أبريل، اقترح كلٌّ من "ناصر" و"عدوان" و"النجار" على "أبو إياد" تناول وجبة سمك في مطعمٍ قريبٍ منهم، بالطبع رفض "أبو إياد" في بادئ الأمر نظرًا إلى كون أربعتهم ضمن قائمة الموت، لكن لسببٍ ما و افق على طلبهم، ربما شعر بأنه لا يجب عليه تركهم ولو حتى لمجرد ساعتين فقط، طبعًا كان ذلك بعد تأكيدهم له على اتخاذ الاحتياطات الأمنية كافة.

وفي جوٍّ من المرح في خلال الغداء، سأل "أبو إياد" الجميع باسمًا: يا رجال، هل لنا أن نتكلم بصفة جديةٍ قليلًا؟ فقد كنت أريد أن أسألكم سؤالًا.

الثلاثة معًا مبتسمين: تفضل يا "أبو إياد"، سَل ما شئت.

"أبو إياد": لماذا أراكم لا تأخذون احتياطاتكم الأمنية في تحركاتكم، ولا تضعون في اعتباركم أنكم مطلوبون للتصفية لدى الصهاينة، إذ تتصرَّفون كما لو كنتم أشخاصًا عاديين ليسوا مطلوبين لدى جهةٍ ما؟

"كمال ناصر" وقد ارتسمت على وجهه ملامح الجدية: أوَلسنا أشخاصًا عاديين؟ كل الفرق فقط أننا أحرار وُلِدنا في زمن العبيد، لهذا نُعامَل على أننا مختلفون، أو نطلب أكثر من حقوقنا، لكن إذا نظرت بتمعن فستجد أن

البقية حولك هم مَن أقل من العاديين، لرضائهم بالذل والهوان، وأن يكونوا ترسًا في ماكينة المال والحياة، فإذا ما تلف أحد تلك التروس، استُبدِل فورًا بآخر، فلا ذكرى ولا إنجاز لأحدٍ منهم، فهم فقط تروس ليس أكثر.

ثم وضع "كمال عدوان" يده على يد "كمال ناصر" مشيرًا إليه بإعطائه فرصته في الإجابة قائلًا: ثم يا "أبو إياد" لا أريدك أن تنسى «أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»، فلو كتب لثلاثتنا أن نموت في يومٍ ما معًا، فسنموت مهما فعلنا ومهما أخذنا من احتياطات أمنية.



"أبو إياد": صدق رسول الله ﷺ، لكن يا صديقي لا أريدك أن تنسى أولَ درسٍ في الهجرة النبوية الشريفة، ألا وهو التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب وعدم التواكل، فلو كان الله يريد أن ينقل النبي ﷺ في لمح البصر لفعل، وما ذلك عليه بعزيز.

"محمد يوسف النجار" باسمًا: بالتأكيد معك حق فيما تقول يا "أبو إياد"، لكننا تعبنا من التأمين والترقب، ونريد أن نعيش حياة طبيعية ولو قليلًا.

عندها نظر "كمال ناصر" في ساعة يده، ولاحظ تأخرهم عن ميعاد الجلسة، فقال باسمًا: لقد تأخرنا عن ميعاد الجلسة، ولو استمررنا في هذا النقاش، أعتقد أن القائد (يقصد عرفات) هو مَنْ سيقتلنا بنفسه.

عندها انفجر الجميع ضحكًا، واستعدوا للذهاب.

وبعد انتهاء الجلسة الثانية لليوم الثاني في حوالي الساعة التاسعة مساءً، سأل "أبو إياد" "كمال ناصر" المبيت عنده كما الليلة السابقة، فأجابه "كمال ناصر" باسمًا: إني أفضل أن أموت على أن أدعك تبيت عندي الليلة، فأنا مشغول الليلة بكتابة قصيدة رثاء في صديقي عيسى نخلة.

فرد "أبو إياد" باسمًا على الرغم من حزنه لعدم المبيت عنده: إذًا أنت الخاسر يا صديقي. سأذهب إلى أصدقائي الثلاثة لأستمع منهم إلى ملحمة الأوديسة، إلى اللقاء.

ولم يكن يعرف أحدٌ منهم أن هذا هو آخر لقاء.



في تلك الأثناء، ولكن في عرض البحر في مقابل شواطئ بيروت، رست القوة البحرية الإسرائيلية بانتظار إشارة الأمان من العملاء الأربعة المنتظرين على الشاطئ ومعهم سياراتهم، وبِيَد أحدهم كشاف قوي لإعطاء إشارة الأمان بخلوِّ الشاطئ من أيِّ إنسان، ويصطادون كنوعٍ من التمويه.

في العاشرة إلا الربع، تناول الرجال وجبة عشاء سريعة، وفي العاشرة والنصف قسَّمَ "إيهود باراك" فريق الاغتيال إلى ثلاث مجموعات رئيسية، تضمُّ كلُّ واحدةٍ منها أربعة أفراد مهمتهم الرئيسية هي اغتيال القادة الثلاثة، وجمع ما لديهم من أوراق، وإضافةً إلى هؤلاء، رجلان مهمتهما تسلق مواسير الصرف للمساعدة في اغتيال "كمال

عدوان"، في حين يحمي بقية الفريق المجموعات الثلاث وقت التنفيذ والانسحاب.

في تمام الحادية عشرة والنصف، تلقت القوات الإشارة الضوئية من العملاء القابعين في الشاطئ، وعلى إثر ذلك صَعِدوا على سطح الزوارق حاملين أسلحتهم وحقائب المتفجرات، وركب أفراد الفرقتين زوارق مطاطية للانطلاق نحو الشاطئ.

في الوقت نفسه، ولكن في مسكن القادة الثلاثة، كان "كمال عدوان" قد تناول العشاء مع زوجته وأولاده الأربعة الصغار، ثم دخل مكتبه وأغلق عليه بابه لكتابة تقرير مهم ينوي عرضَه على "عرفات" في اليوم التالي، في حين جلس "كمال ناصر" في مكتبه لكتابة قصيدة رثاء

على صديقه الشاعر "عيسى نخلة"، معلقًا صورته خلفه في إطارٍ ذي شريط أسود، وبجواره إطارٌ آخر به صورة للسيدة مريم العذراء وهي حاملة السيد المسيح بين يديها وفوقهما خريطة فلسطين المحتلة.

أما "محمد يوسف النجار"، فبمجرد وصوله منهكًا إلى المنزل، ذهب مباشرة إلى السرير باحثًا عن بعض الراحة، في الوقت الذي انكب فيه ابنه "يوسف" البالغ من العمر ستة عشر عامًا على مراجعة ومذاكرة دروسه، ومن حوله اثنان من إخوته وأمه.

وعلى بعد عدة منشآت، وتحديدًا على بعد خطوات من مبنى الجبهة الديمقراطية ذي الطوابق التسعة القابع في شارع الخرطوم، جلس "صلاح خلف" مع أصدقائه

الثلاثة الناجين من عملية ميونخ للاستماع إلى تفاصيل العملية منهم المرات تلو المرات، أوكما أحبَّ أن يسميها "ملحمة الأوديسة".

في الوقت نفسه، كانت القوات الإسرائيلية قد وصلت إلى شواطئ بيروت على "لانشات الزودياك" المطاطية.

وبسرعة البرق، انطلقوا نحو السيارات الأربع، مع ترك مجموعة صغيرة على الشاطئ لحراسة اللانشات والمعدات المتبقية، وتم تقسيم السيارات على المجموعتين بو اقع اثنتين لكل فريق، ومن ثم ركب كل فريق في السيارات المحددة له، و انطلق الجميع لتنفيذ العملية.

وفي شارع غانا، انفصل الفريقان، إذ توجه فريق القتل بقيادة "باراك" نحو شارع فردان (حيث يقيم القادة

الثلاثة)، في حين توجه فريق النسف نحو مقر الجبهة الديمقراطية الو اقع في شارع الخرطوم.

وفي شارع فردان، وعلى بعد ست عمائر من الهدف، توقفت السيارات، وترجل "باراك" متنكرًا في زي امرأة، وتأبط ذراع رفيقه "هوكي بوترز"، ومشيا باتجاه المنزل، وتحت ثيابهما مسدسات البرتا الخاصة بهما. وبمجرد وصولهما إلى أمام المنزل، تقدم "باراك" ماضغًا العلكة في ميوعةٍ شديدةٍ، وحاملًا سيجارةً غيرَ مشتعلة بين أصابع يديه باتجاه أحد الحرس لسؤاله بالإنجليزية بابتسامةٍ مغرية: هل مَعَك عود ثقاب من فضلك؟

الحارس مبتسمًا لـ"باراك": نعم.

فمد الأخير يده في جيبه لإخراج ما معه من عيدان ثقاب.

في تلك اللحظة، سحب كُلٌّ من "باراك" وصديقه مسدسيهما، وأطلقا على كلٍّ منهما طلقتين أردتهما قتلى على الفور. وفي أثناء سقوطهما على الأرض، نظر إليهم "باراك" بكل برود واستخفاف قائلًا: Sorry soldiers!

حينها أعطى "بوترز" الإشارة إلى البقية بالتحرك. وبسرعة البرق، كان الجميع عند المنزل، وتم نقل جثتي الحارسين إلى بئر السلم، ليبدأ العد التنازلي لتنفيذ العملية، التي كان من المقرر أن تبدأ بعد ثلاث دقائق من دخولهم المبنى.

لذا وبمنتهى السرعة، انطلقت المجموعات الثلاث مرتدين جوارب نسائية على وجوههم لإخفاء ملامحها.

وبعد ثلاث دقائق بالتمام والكمال، توالت الانفجارات التي لحقها تبادل كثيف لإطلاق النيران.



ولكن ما الذي حدث بالتفصيل؟

في الطابق الثاني، وفيما كان "كمال عدوان" منهمكًا في إعداد التقرير المكلف به، سمع ما يشبه صوت الخربشة في الباب الخارجي، فتوجه بسرعة ناحيته لاستراق السمع، فأتاه صوت بندول ساعة منتظم، حينها أسرع إلى غرفة نومه لإحضار الكلاشينكوف، فسألته زوجته في خوف: ماذا يجري؟

فأجابها في ثبات وبابتسامةٍ خفيفةٍ: لا تقلقي.

ولكن مع الأسف، لم تسعفه سرعته في نجدته، فما كاد يقترب من الصالة حتى وقع انفجارٌ مدوٍّ اقتحم على إثره الصهاينة الأربعة الشقة، ووجدوه مُلقًى على الأرض

بعدما أطلق عليه الاثنان اللذان تسلقا مواسير الصرف الرصاصَ من الخلف.

وفي تلك الأثناء، كانت توجد امرأة عجوز إيطالية تمتلك محلَّ عطور، مقيمة في الشقة المقابلة لشقة "كمال عدوان". وقد استيقظت من نومها مذعورة نتيجة لصوت الانفجار، ففتحت باب شقتها تستطلع الأمر، لكن بمجرد رؤيتها الدخان الشديد والجنود، أغلقت شقتها على الفور، وظلت تصيح وتصرخ طالبةً النجدةَ بالإيطالية، فانزعج أحد القتلة لما فعلت، فوجَّه رشاشه نحو شقتها مطلقًا زخَّة رصاص عليها أسكتتها إلى الأبد.

نعود مرة أخرى إلى شقة "كمال عدوان". إذ على الرغم من مقتله، فبفعل الغل والخوف أطلقَ عليه البقية أكثر



من ستين طلقة هشَّمت صدره ورأسه، وفصلت البقية الباقية منه عن جسده، وقد كان كل ذلك على مرأى ومسمع من الأطفال والزوجة التي ما إن رأت جثة زوجها على تلك الحال حتى انطلقت نحوها كالمجنونة لتحتضنها وتحمي ما تبقى منها من هؤلاء القتلة، إلا أن صراخ أطفالها الذين صرعهم الرعب جعلها تسرع إليهم وتضمهم إلى صدرها، تشاركهم الفاجعة، وتحميهم من رصاص الغدر. في الوقت نفسه، توجه ثلاثة من القتلة لملء حقائبهم بالأوراق والملفات التي بالمكتب، وبعدما انتهوا فتشوا بقية غرف الشقة بحثًا عن أي أوراق أخرى، ثم أخذوا كلاشينكوف "كمال عدوان" وخرجوا.

أما في الطابق الثالث، بينما كان "كمال ناصر" سابحًا في بحور الشعر لاصطياد كلمات قصيدة رثاء صديقه ورفيق

دربه "عيسى نخلة"، حدث الانفجار الذي حطم باب شقته، و اقتحمها الصهاينة على إثره، وعلى الفور ركض "ناصر" نحو مسدسه المحشو مطلقًا رصاصتين أصابتا أحد أعضاء فريق الاغتيال إصابة بالغة، مما أصاب بقية أعضاء الفرقة بالجنون، فأفرغوا ثلاثين طلقة في صدره حتى انشق نصفين، ويا ليتهم اكتفوا بذلك! فبعدما قتلوه سحبوا جثته على الأرض، ومثَّلوا بها على صورة صليب، لأنهم لم ينسوا أنه مسيحي متدين.

ثم انقسمت بعد ذلك مجموعة القتل إلى قسمين، الأول جمع كل الأوراق الموجودة في الشقة، في حين أطلق الفريق الآخر الرصاصَ على كل أرجاء الشقة بطريقة هستيرية لقتل أي شخص قد يكون مختبئًا في أي مكان، وبعد انتهائهم من الشقة بالكامل، انسحبوا جميعًا.

وفي الطابق السادس، وبينما كان "محمد النجار" غارقًا في نوم عميق و ابنه "يوسف" الصغير منهمكًا في مذاكرة ومراجعة دروسه والأم تعد الطعام للأبناء، وصل القتلة إلى الطابق الخامس بالمصعد، ومن ثم صَعدوا في هدوء شديد إلى الطابق السادس حيث وضعوا العجينة المتفجرة على مدخل الشقة، وأحدثوا الانفجار المدوي الذي تبعه اقتحام القتلة الشقة وتصويب فوهات أسلحتهم في وجوه الأطفال، في حين سأل أحدهم "يوسف" الصغير بعبارة ركيكة قائلًا: أين أبوك؟

وقتها ركض "يوسف" والرعب يملأ عينيه باتجاه غرفة النوم، لكنه ما كاد يفعل ذلك حتى وقع على وجهه، ففهم القتلة أن أباه في الغرفة، فأمطروا الغرفة بو ابلٍ من الرَّصاص، لكن عند اقتحامها، فوجئوا بعدم وجوده، إذ

كان نائمًا في غرفةٍ أخرى، لكنه -في لحظة الانفجار- قفز

من سريره، وأمر زوجته بإحضار الكلاشينكوف خاصته،

فركضت "أم يوسف" في حالة ذعر هستيري نحو غرفة

النوم، إلا أنها فوجئت بوجود اثنين من القتلة، فتراجعت

صارخة محاولة افتداء زوجها بنفسها إذ ارتمت عليه،

لكن طلقات الغدر اخترقت جسديهما، فقد كان و اقفًا

خلف كل منهما اثنان من القتلة فرَّغا طلقاتهما فيهما،

وكانت آخر كلمات نطقها "محمد يوسف النجار" في أثناء

صراخه تجاه الصهاينة: جبناء... جبناء... خونة!

نعود بالزمن دقائق إلى الوراء قبل التفجير، فبينما كان

"صلاح خلف" مستمتعًا بالاستماع إلى سيمفونية ميونخ

من الناجين الثلاثة الذين تلوها عليه المرات تلو المرات،

و"ياسر عرفات" قد غلبه النعاس من شدة الإرهاق في

شقة قريبة منهم، قطعتْ كلَّ ذلك أصواتُ الانفجارات الشديدة المتتالية، فانطلق الجميع نحو أصوات الانفجارات التي تبعها تبادل شديد لإطلاق النيران بين الصهاينة والفلسطينيين، نتج عنه إصابة ثلاثة من قوة التأمين والحراسة الإسرائيلية.

وقتها كان "باراك" مختبئًا في بئر السلم شاهرًا مسدسه الصغير، ويصرخ في القتلة قائلًا: اضربوا هؤلاء الصراصير بلا رحمة، لقد أصابوا ثلاثة من زملائكم.

كان الثلاثة المصابون مفترشين الشارع وسط تبادل إطلاق النيران، وفي أثناء السعي المستميت من قوة "باراك" للتغطية على المصابين بالإطلاق الناري وإنقاذهم، بدأ الملازم أول "أبيادوع شور" الزحف تجاه

"باراك" وزملائه، لكنه تلقى عدة رصاصات من المقاومة أردته قتيلًا. عندها حاول الثاني ويُدعى "جاجاي" أن يحذو حذو زميله، لكنه لاقى مصيره نفسه ورقد مكانه إلى الأبد. فلمَّا رأى ثالثهم ما حدث لسابقيه، آثر السلامة ومثَّل دور القتيل، ومن شدة الرعب والخوف من تلقي رصاصة طائشة من أحد الطرفين، تبول وتبرز على نفسه في مكانه.

وكاد أن يتم إبادة الفرقتين عن آخرهما، لولا اتصال مسئولي الاتصال اللاسلكي بمجموعة التأمين -بسفُن الإمدادات والدعم لتغطية انسحابهم بواسطة القذف المدفعي المكثف.



وقد كان، إذ تمكنوا من الفرار تاركين وراءهم جثث قتلاهم كي لا يلقوا نهايتهم.

(9)

ليليهامر

في اليوم التالي للعملية، خرجت "جولدا مائير" إلى الكنيست وهي في قمة السعادة قائلة: إنه لشيء رائع أن نقتل القتلة قبل أن يستطيعوا القتل من جديد.

وبعد مرور شهرين على عملية فردان، وفيما كانت "جولدا مائير" نائمة، إذا بها تحلم بأنها داخل حجرة ذات لونٍ أحمرَ قانٍ، تتوسَّطها طاولة سفرة دائرية ذات ثلاثة مقاعد، سرعان ما جلست عليها بجوار كلٍّ من "زيفي زامير" رئيس جهاز الموساد، و"مايك هاراري" قائد وحدة السايريت ماتكال، ومقدَّم لكل منهم طبق عليه غطاء خاطف للأبصار، ليرفع الثلاثة أغطية الطعام في آنٍ

واحد، إذ وجد كلٌّ منهم أمامه رأس أحد القادة الثلاثة الذين تم اغتيالهم في عملية نبع الشباب، وحوله قطع لحم منه مغطاة بدمائه، ويبدأ كلٌّ في تناول طبقه بكل استمتاع وسعادة.

وبمجرد انتهائهم من تلك الوجبة، حمل كلٌّ منهم الرأس الموضوع أمامه، وهم في قمة سعادتهم، وعلقوها مع بقية الرؤوس المعلقة على الحائط بدايةً من دخول الاحتلال فلسطين وارتكابهم المجازر فيها حتى هذه اللحظة، إذ كانت الغرفة ممتلئة برؤوس من قتلوهم وغُمِست أيديهم بدمائهم. وفي أثناء مزاحهم معًا وتبادلهم النكات حول ما فات، وقع انفجار ضخم قطع عليهم سعادتهم، صانعًا فجوة كبيرة في أحد جدران الغرفة التي خرج منها "علي حسن سلامة" وهو غامض الملامح، حاملًا الكلاشينكوف

بكلتا يديه. نظر الجميع إليه لسؤاله في حين علت وجوهَهم علاماتُ الصدمة والدهشة ممزوجة بالرعب والخوف قائلين: من أنت أيها الهمجي؟ وكيف تتجرأ على الدخول إلى هنا؟

"علي حسن سلامة": همجي! أتطلقون علينا لقب همج و أنتم لا تعلمون عن التحضر سوى اسمه و أيديكم غارقة في دمائنا؟ تسرقون أرضنا وتقتلون أهلنا وإذا حاولنا الدفاع عن أهلنا وأرضنا تسموننا إرهابيين، ونصبح لا نستحق سوى القتل بأبشع الطرق! لقد فاض بنا الكيل بما تفعلون، ولا بد من نهايتكم.

وما إن أنهى "علي حسن سلامة" حديثه حتى أطلق زخَّات رَصاصاته عليهم ليُسقِطهم واحدًا تلو الآخر، في حين



وقفت "جولدا مائير" تشاهدُهم، إذ كانت هي الأخيرة بينهم. لتستيقظ بعدها من الحلم -أو إن صح القول الكابوس- وهي تنهج وتتحسس رقبتها لتتأكد من أنها ما زالت تنبض بالحياة. وبطبيعة الحال، كان من المستحيل عليها أن تكمل نومها بعد ما رأته في هذا الكابوس، بخاصة بعد أن نظرت إلى ساعة المنبه الموجودة على المكتب الملاصق لسريرها، التي كانت تشير إلى الساعة الخامسة والنصف صباحًا، لتطلب في الصباح إجراءَ مقابلةٍ عاجلةٍ بـ"زيفي زامير" وتسأله قائلة: ما هي آخر التطورات في عملية صيد الأمير الأحمر (تقصد "علي حسن سلامة")؟

"زيفي زامير": ما زلنا نحاول، لكنه مثل الشبح يتحرك دون أثر.



عندها لم تستطع "مائير" أن تتمالك أعصابها أكثر من ذلك، إذ صرخت في وجهه قائلة: لا أريد أيَّ أعذار. هل عجز جهازك بأكمله عن ملاحقته واصطياده؟ اقتلوا هذا الوحش، أسكتِوه إلى الأبد، إن جسدي ليرتعد خوفًا كلما تذكرت هذا الكابوس المدعو سلامة، فلا يمكنني نسيان ما فعله أبوه فينا، و إنه قادم للثأر منا.

ثم أكملت قائلة بكل حزمٍ وإصرار: اذهب الآن وباشر عملك، ولا أريد أن أسمع في المرة القادمة أيَّ أعذار.

خرج "زيفي زامير" من الغرفة متجِّهًا نحوَ غرفة مكتبه قائلًا بينه وبين نفسه: ماذا بها تلك العجوز الشمطاء كي تكلمني بهذه الطريقة؟! هل نسيت أنني منذ شهرين قدمت

لها رؤوسَ ثلاثةٍ من قيادات أيلول الأسود على طبق من ذهب؟!

وبمجرد وصوله إلى مكتبه، أرسل في طلب رجله الأول "مايك هاراري" المسئول عن عملية "غضب الرب"، لسؤاله عن آخر تطورات صيد "علي حسن سلامة" أو كما أسمته "جولدا مائير" (الأمير الأحمر)، إلا أن إجابة "هاراري" لم تختلف هي الأخرى عن إجابة "زامير" نفسه لـ"جولدا"، فرد عليه "زامير" معنفًا: لا أريد أن أسمع منك أي أعذار، ولتعلم أن رأسك ورأسي أمام رأس ذلك الإرهابي.

"مايك هاراري": حسنًا، سأفعل ما بوسعي.

"زيفي زامير" غاضبًا: ليس ما بوسعك، و إنما أريدك أن تسلم لي رأسه.

"مايك هاراري": حسنًا، ولتكن مشيئة الرب.

خرج "هاراري" من مكتب "زامير" متجهًا نحو غرفة العمليات لتسلم ملف الأمير الأحمر، الذي بمجرد أن فتحه بدأت تتوالى عليه الصدمات الواحدة تلو الأخرى، فبدايةً ولأول مرة في حياته لم يجد صورةً لصاحبه سوى صورة قديمة مكبَّرة باهتة تُخفي أي علامات مميزة لوجهه.

وكانت تلك هي البداية فحسب، فبمجرد تصفحه الملف، وجد ما لم يكن يتوقعه، وكان مما ورد فيه:



"علي سلامة" دائم التنقل بعدة جوازات سفر بعضها دبلوماسي، وبأسماء مختلفة غير معلومة.

حاد الذكاء، ماكر، يتمتع بحس أمني ممتاز، يحيط تحركاته بسرية مطلقة مع إجادة فنون التنكر والتخفي.

يغيِّر مسكنه مثلما يغير ملابسه، فلا يسكن في مكان أكثرَ من ليلتين.

مسلَّح دائمًا.

جيد التدريب بدنيًّا وميدانيًّا على استعمال السلاح.

قتل أكثر من أربعة وعشرين عميلًا للموساد في خلال أشهر معدودة، اكتُشِف فيها تسلُّلهم إلى صفوف المقاومة الفلسطينية.

دائم التردد على باريس وعواصم الدول الإسكندنافية.

يجيد عدة لغات أوروبية بطلاقة تساعده على التحرك والتخفي.

باختصار، وجد "هاراري" نفسه مكلَّفًا باغتيالِ شخصٍ ليس له اسم محدَّد ولا صورة محدد ولا سكن محدد، ولا بد من التخلص منه بأسرع صورة ممكنة لأنه بات يُشكِّل صداعًا مزمنًا للقيادة العليا بالحكومة الإسرائيلية.

بدأ "هاراري" رحلته في البحث عن الشبح يائسًا من قلة المعلومات المتوفرة عنه، لذا اعتمد على التحليل النفسي لدراسته علم النفس (السيكولوجيا)، فربما يعثر على ثغرةٍ تقوده إلى عرينه، وأخذ في تجميع كل معلومة عنه

تكشف سلوكه وتحركاته المحتملة خارج بيروت، بعد أن أصبح مستحيلًا عليه اصطياده داخل بيروت.

وفي خضم عملية البحث، إذا بمعلومة تصل إلى "هاراري" تفيد بوصول الأمير الأحمر إلى باريس بعد جولةٍ سريةٍ في "أولم" و"شتوتجارت"؛ سعيًا منه لتنفيذ عملية انتقامية ردًّا على عملية نبع الشباب.

بعدها بأيام، وَرَدتْ معلومة أخرى بتوجُّه الأمير الأحمر إلى الدول الإسكندنافية. وقتها توقع "هاراري" أن عدوه اللدود هدفه هو ضرب إحدى السفارات هناك، ولذا تقرر تشديد الحراسة على تلك السفارات، وكذا نشر عملاء الموساد في أرجاء الدول الإسكندنافية كافة حاملين



صورة مكبرة للأمير الأحمر في محاولة لرصده وقتله، وكان ذلك تحديدًا في الأول من يوليو عام 1973 م.

وفي الرابع من يوليو، وصل إلى استوكهولم عميل الموساد المعروف "دانييل آربيل" مع رفيقيه "جوستاف بيستاور" و"جان لوك سيفيتير"، وأخذوا في مسح شوارع العاصمة وفنادقها أملًا في العثور على الأمير الأحمر دون أي فائدة.

وقبل عودتهم إلى تل أبيب، تلقوا أوامر بسرعة التوجه إلى أوسلو، إذ وصلت إخبارية لرجال المخابرات الإسرائيلية تفيد بوجود شخصٍ جزائريٍّ يدعى "كمال بن مانا"، يُشتبه بأنه ربما قد جاء لمقابلة "سلامة"، ولذا تقرر تكليف "آربيل" ورفيقيه بمراقبة الشاب الجزائري، وألا يغفلوا عنه لحظةً لعلهم يصلون إلى هدفهم من خلاله.



وفي تل أبيب، وضع "هاراري" خطته وشكَّل فريقه الذي ضمَّ -علاوةً على آربيل ورفيقيه- عشرة من صفوة عناصر السايريت ماتكال.

فوجئ الفريق بانطلاق "كمال بن مانا" نحو جزيرة ليليهامر، وهي جزيرة سياحية تقع في إحدى البحيرات النرويجية الواقعة على بُعد مئة وسبعين كيلومترًا من العاصمة أوسلو، وعلى الفور انطلق الفريق بالكامل وراءه نحو الجزيرة.

نزل "ابن مانا" في فندق "سكوت" الواقع بالقرب من المحطة فور وصوله في الحادي عشر من يوليو، وتبعه في ذلك فريق القتل بكامل تشكيله وبحضور كلٍّ من "مايك

هاراري" رئيس العمليات و"زيفي زامير" رئيس الموساد شخصيًّا.

في اليوم التالي، توجه "ابن مانا" إلى مقهى هادئ مطل على ميناء صغير للمراكب وخلفه ثلاثة من فريق القتل بهدف مراقبته، إذ وجدوا في انتظاره شابًّا عربيًّا في الثلاثين من عمره. وبعد تشاور بين ثُلاثي فريق القتل، وقع الاختيار على "جوستاف بيستاور" للدخول وراءه إلى المقهى ومراقبته، وبالفعل دخل وراءه في ثقة متخذًا مجلسه قبالة الرجلين من بعيد. وفيما هو يدقق النظر في صديق "ابن مانا"، إذا به يبدأ في فقدان السيطرة على أطرافه الأربعة بصورة تدريجية ويشعر بأن الموت بات ملامسًا جسمَه! وكيف لا، والرجل الجالس أمامه بصحبة "ابن مانا" هو كابوس دولة الاحتلال؟! قتل بيديه عشرات

الصهاينة، وحرم إسرائيل من المشاركة في الدورات الأولمبية، وتعقب ضباط الموساد في أنحاء أوروبا كافة وقتلهم، إنه هو الأمير الأحمر "علي حسن سلامة".

ظل "جوستاف" محشورًا داخل كرسيه لا يقوى على الحرَاك، وعلى الرغم من وجود صورة "سلامة" في جيبه، إلا أنه لم يجرؤ على مد يده والنظر فيها في وضعه الشديد الصعوبة على نفسه، إذ أيقن أن نزلاء المقهى القلائل جميعهم، هم رجال الأمير الأحمر. ولمَّا انتبه إلى ارتجاف ساقيه لا إراديًا، تخوف من ملاحظة أحد الجالسين أو حتى الأمير الأحمر نفسه له فيصبح في عداد القتلى، بخاصة أنه على علم اليقين بأن هدفه له حاسة شم قوية استطاع بها على الدوام تمييز وكشف الصهاينة والعملاء من حوله، ومن ثم قتلهم على الفور.

وقد استمر "جوستاف" على هذا الوضع ما يزيد على أربعين دقيقة، حتى غادر "ابن مانا" مع "سلامة". عندها فقط شعر بأنه قد عاد إلى الحياة مجددًا، وللتأكد من أنه ما زال على قيد الحياة، هز رأسه بقوة عدة مرات، وعندما همَّ بالمغادرة، كانت أطرافه لا تزال ترتجف، وجسده يتصبب عرقًا.

وعلى الفور توجهت مجموعة من فريق القتل لمراقبة الأمير الأحمر على مدار الساعة، وما إن دخل إلى إحدى الشقق في منزل مكون من تسعة طوابق حتى حاصر رجال "هاراري" المنزل ومداخل ومخارج الجزيرة تحسبًا لخروج "سلامة". وفي تلك الأثناء، توجه "زيفي زامير" نحو مدينة "هامر" التي تبعد مسافة سبعة وخمسين كيلومترًا من مدينة ليلهامر في انتظار البُشرى السارَّة.

وعند الساعة السابعة مساءَ السبت الموافق الحادي والعشرين من يوليو عام 1973 م، غادر سلامة المنزل متأبِّطًا ذراع حسناء أجنبية حاملًا، ليستقلَّا حافلةً متجهةً نحو شمال المدينة، التي أنزلتهما أمام إحدى دور السينما التي كانت تعرض فيلمًا أمريكيًّا عن الحرب العالمية الثانية اسمه "النسر الشجاع"، يحكي قصة جنرال أمريكي تم تحريره من الأسر في المعتقلات الألمانية.

في الوقت نفسه، وبحرص شديد ودون إثارة أي إنتباه، دفع فريق القتل حساب الفنادق والشقق وحزموا أمتعتهم وحجزوا تذاكر القطارات وحددوا ساعة الصفر للتنفيذ والتغطية والانسحاب.

وبمجرد خروج "سلامة" والمرأة الحامل من السينما، ركبا أقرب حافلة أوصلتهما إلى المحطة التي تبعد عن المنزل ما

يقارب مئتَي متر، تلك المسافة التي دائمًا ما تعودا السير

فيها معًا في أثناء وجوده في ليلهامر، في حين تحيط بهم

االأضواء الخافتة في منطقة تكاد تكون هادئة جدًّا،

لوقوعها في الطرف الآخر من المدينة. ولم يكد يخطو الأمير

الأحمر عدة خطوات مع فتاته الحسناء حتى اقتربت منه

بهدوء سيارة مازدا يقودها "رودلف باهز" و"ثامرا"

اللذان صوبا مسدسيهما المزودين بكواتم الصوت ناحية

"علي حسن سلامة".

حينها صرخت المرأة الحامل: لا... لا...!

وعلى الرغم من محاولات "سلامة" المستميتة في الهروب

منهم، إلا أن رصاصاتهم كانت أسرع منه، إذ اخترقت

رصاصات "جوناثان" الست بطنَ "سلامة" الذي سقط



يتلوَّى على الأرض زاحفًا بحثًا عن أي سبيلٍ للنجاة، إلا أن العميلة الشرسة "ثامرا" لم تكن لتمنحه تلك الفرصة، فعلى الفور صوَّبت مسدسها باتجاه رأسه، وأطلقت رصاصتها الست عليها لتتطاير على إثرها أجزاء من عظام جمجمته. وزيادةً في التأكيد وبسرعة البرق، أخرجت "ثامرا" مسدسًا آخرَ من النوع نفسه، فرَّغت رصاصاته الست في قلبه ورئتيه، هذا بالطبع بعد أن مزقت تلك الرصاصات قفصَه الصدري.

وقبل أن تنطق المرأة التي معه بأي حرف، نظرت "ثامرا" إليها نظرة تحذيرية جادة أخرستها في الحال، إذ شعرت بأن الموت بات أقرب إليها من حبل الوريد، لذا امتدت يدها إلى فمها بطريقة تلقائية حتى لا تلحق بالقتيل إلى العالم الآخر.

لم تستغرق العملية برمتها أكثر من خمس وعشرين ثانية بعد حلول الحادية عشرة مساءً، وبعد التأكد من مقتل هدفهم، انطلقت سيارة القتلة هاربة. وقتها فقط ارتفع صوت السيدة المصدومة بالصراخ الذي تردَّد في أرجاء الحي الهادئ.

وعلى الفور، غادر أعضاء الفريق ليلهامر بعدما توزعوا على وسائل المواصلات العامة بالمدينة، للوصول إلى أوسلو، إذ التقى "زيفي زامير" رئيس الموساد بـ"مايك هاراري" وهنأه على مهارته وشجاعة فريقه! وفي خلال جلستهما معًا، استعرض "هاراري" لرئيسه وصفًا تفصيليًّا دقيقًا لخطوات اغتيال الأمير الأحمر، وشربا نخبَ النجاح بعدما اطمأنَّا على وصول الخبر السعيد إلى

القيادة السياسية في تل أبيب، وغرق كل منهما في سبات عميق بعد حرمان طويل من النوم.

نام "زيفي زامير" رئيس الموساد في تلك الليلة قرير العين، حالمًا بالتكريم الذي سيحظى به عند عودته إلى إسرائيل، واللقاء المثير بينه وبين "جولدا مائير" التي ستُقَبِّل جبينه مع أعضاء فريقه بقيادة "هاراري" امتنانًا وعرفانًا لما بذلوه من مجهود.

وفي الصباح، استيقظ "زامير" لمتابعة آخر أخبار وتطورات العملية.

وبالفعل، بمجرد أن فتح شاشة التليفزيون، وجد أمامه خبر الاغتيال متصدرًا المحطات الإخبارية، والذي راح ضحيته الشاب المغربي الأصل "أحمد بوشيقي" المتزوج

بالممرضة النرويجية "توريل" والمقيم في ليليهامر منذ أربع سنوات، إذ كان يعمل جرسونًا في أحد مراكز الاستشفاء، كما أضاف النبأ أن السلطات الأمنية تتعقب الجناة وهم عدة رجال وامرأة كما أفادت بذلك زوجة القتيل.

نعود إلى ماضي عدة أشهر، وتحديدًا بعد عملية نبع الشباب، فبينما كانت تتهافت كالعادة عديد من الحركات الثورية في إصدار بيانات تتوعَّد بالثأر والقتل لمنفذي تلك العملية، كان للأمير الأحمر رأيٌ آخر، إذ كان يرى أنه لن يأتي بحقِّ القادة الثلاثة من قاتليهم سوى العمل وكثير من العمل في صمت شديد، لذا بدأ بإرسال عدد من العملاء المزدوجين للانخراط مع الموساد من خلال سفارتين أوروبيتين مختلفتين، كانت مهمتهم تنحصر في تزويد الموساد بسلسلةٍ من التواريخ والمواقع التي تظهر تحركاته

الوهمية التي أراد من الموساد والحكومة الإسرائيلية تصديقها.

والحقيقة، أن الصدفة وغباء جهاز المخابرات الإسرائيلية قد ساعدا "سلامة" على تعظيم صيده وكذا انتقامه، وذلك بداية من توجيه حفنة من القتلة من شتات العالم هدفهم الرئيسي التخلص من شخص مجهول الملامح مرورًا باختيار أفراد غير مدربين تدريبًا جيدًا، ووصولًا إلى قدوم "زيفي زامير" شخصيًّا إلى مسرح الأحداث، الذي كان يصلح لأن يكون مصيدة له شخصيًّا هو وفريقه أكثر مما يصلح لتنفيذ عملية اغتيال.

نعود الآن إلى فريق الاغتيال الموجود في ليليهامر مرة أخرى، إذ أصيب "زيفي زامير" بصدمةٍ مهولةٍ بينما جن



جنون "هاراري". أما في إسرائيل، فقد كان الوضع ينذر بكارثة لم تحدث من قبل، فرئيس الموساد مُحاصَر في أوسلو ومعه أغلب أفراد فريقه، وصارت إسرائيل بذلك مُعَرَّضةً لفضيحة لم يسبق لها مثيل في أي دولة بالعالم، في حال اعتقال "زيفي زامير" بصفته وشخصه هو ومن معه داخل أوسلو.

ومما زاد الطين بلة، أنه في صباح الأحد، وعند إعادة كلٍّ من "دانييل آربيل" و"ماريانا جلادينكوف" سيارة كانا قد استأجراها، تم القبض عليهما وفشل كل منهما في تبرير وجودهما في أوسلو، إذ روى كُلٌّ منهما قصصًا لم تقنع رجال الأمن، وبناء على ذلك تم حجز "آربيل" انفراديًّا في حجرة صغيرة تقع في بدروم مركز الشرطة. عندها صرخ بطريقة هستيرية مطالبًا بإخراجه للاعتراف بكل شيء، إذ

كان عميل الموساد المخضرم مريضًا برُهاب الأماكن المغلقة (كلستروفوبيا/ Claustrophobia)، مما سهل اعترافه بكل شيء عن مهمته الحقيقية، ولم يكتَفِ بذلك، بل وأرشد أيضًا عن مكان زميليه "إفراهام جيهمر" و"سيلفيا رافائيل".

وبمجرد وصول الشرطة إلى "سيلفيا"، عثروا على رقم تليفون داخلي دلَّ الشرطة على "ميشيل دوف"، الموظف بالسفارة الإسرائيلية في أوسلو. وعند القبض عليه، وجدوا عنده "زيفي شتاينبرج"، فاعتُقِل هو الآخر.

وبهذا ففي اليوم التالي، وفي ظل اعترافات "آربيل" ومن معه بكل تفاصيل العملية، تم الإعلان عن القبض على ستة من عملاء الموساد اشتركوا مع آخرين غادروا البلاد

في اغتيال الجرسون المغربي الأصل "أحمد بوشيقي" عن طريق الخطأ ظنًّا منهم أنه "علي حسن سلامة".

كان كلُّ هذا يحدث في أثناء محاصرة رئيس الموساد بالعاصمة الإسكندنافية في أوسلو، وعلى الرغم من علاقة الصداقة الوثيقة التي تربط جهازي المخابرات الإسرائيلية والنرويجية آنذاك، فإن هذه العلاقة لم تشفع لهم، إذ رفضت المخابرات النرويجية التدخل بأي صورة من الصور لحماية الفريق الإسرائيلي أو رئيس الموساد نظرًا إلى علنية الحادث، مما اضطر "جولدا مائير" إلى اللجوء إلى المخابرات الأمريكية (C.I.A) التي تدخلت بصفة مباشرة لتأمين خروج رئيس الموساد و"مايك هاراري" بسلام إلى إسرائيل.



أما عن العملاء الستة الذين تم القبض عليهم، فتم الحكم عليهم بمُدد تتراوح بين عام وخمسة أعوام، و"زيفي زامير" بدلًا من أن يتم استقباله استقبال الفاتحين وتفرش له الأرض بالورود والياسمين، تم استقباله بقرار إقالة مهين.

ولم تمر عدة أيام على فضيحة ليلهامر إلا وتم الكشف عن مخطط آخر كاد أن يُفقِد كلٌّ من الحكومة الإسرائيلية وجهاز الموساد البقية الباقية من عقلهم، ففي الأول من أكتوبر من العام نفسه، وبعد انتهاء البوليس الإيطالي من تفتيش إحدى الشقق في روما، التي يقطن بها خمسة من الشباب العرب، عثروا في أحد الدواليب على صاروخ "سام7" المحمول على الكتف. وفي خلال التحقيقات معهم، تبين للحكومة الإيطالية أن

هؤلاء الشباب ما هم في الحقيقة إلا خمسة فدائيين

تابعين لأيلول الأسود، كانوا مكلفين بإسقاط إحدى

طائرات العال التي كان من المفترض أن تكون على متنها

"جولدا مائير" رئيسة وزراء الحكومة الإسرائيلية

شخصيًّا.

في الوقت نفسه، ولكن في بيروت، وتحديدًا في حي

الفكهاني حيث يقع مقر منظمة التحرير وحركة فتح،

توجه الأمير الأحمر "علي حسن سلامة" نحو مكتب القائد

"ياسر عرفات" بعد وصوله من أوروبا، وما إن دخل إلى

مكتبه حتى وجده جالسًا مع فتاة حسناء ذات جسد

رياضي متناسق، متوسطة الطول بيضاء البشرة وتمتلك

عينين عسليتين وشعرًا بنيًّا حريريًّا مما يزيدها حسنًا

وجمالًا، وبالنظر إلى ملابسها وطريقتها في الحديث، يمكن

بسهولة استنتاج انتمائها إلى الطبقة الأرستقراطية.

تعجب الأمير الأحمر من وجودها في مكتب قائده، فقرر الانسحاب قائلًا: آسف، يبدو أنني قد حضرت في وقت غير مناسب.

إلا أنه ما كاد يلتفت للخروج حتى قاطعه "عرفات" قائلًا: تفضل يا بني، لا يوجد أحد غريب، كيف كانت رحلتك الأخيرة؟

الأمير الأحمر: الحمد لله، موفقة أكثر مما كنت أتخيل، فقد أتممت فيها صفقة العمر.

كانت الفتاة جالسة واضعة قدمًا على أخرى، ولا تفهم شيئًا مما يُقال، فأكمل الأمير الأحمر حديثه قائلًا: ولكن ألن تعرِّفنا بالضيوف؟

عندها طرق "عرفات" بكفِّه على رأسه طرقةً خفيفةً تعبيرًا عن نسيانه قائلًا: تبًّا لي، لقد نسيت أن أعرفكما بعضكما على بعض! هذه هي الدكتورة أمينة المفتي، أردنية وحاصلة على دكتوراه في الطب النفسي من جامعة فيينا بالنمسا، وتُعتبر من أنشط الأطبَّاء المتطوِّعين في عيادة "صامد"، إن لم تكن أنشطهم على الإطلاق، وهذا هو السيد وليد، رجل أعمال فلسطيني، وهو أيضًا من أكثر الداعمين لنا، وأعتبره في مقام ابني.

تصافح الاثنان، وبعد مدة من الحديث، استأذنت الدكتورة "أمينة" الحاضرين للذهاب إلى منزلها لأنها باتت تشعر بالإرهاق بعد يوم طويل من العمل.

وبعد أن دخلت منزلها وأغلقت الباب، توجهت نحو ستائر المنزل وأغلقتها هي الأخرى، ثم بدأت في التجول قليلًا داخل الشقة للتأكد من خلوِّها من أي كائنٍ عَداها.

وبمجرد اطمئنانها لذلك، توجهت مباشرة نحو المكتب القابع في إحدى الغرف، إذ جلست إليه لتفتح أحدَ الأدراج، وأخرجت منه مصحفًا قرأت فيه بعض الصفحات التي ما إن أنهتها حتى أخرجت ورقة بيضاء كتبت عليها بعض الكلمات غير المفهومة، ومن ثم أخرجت جهاز إشارة أرسلت به الرسالة التالية: "التقيت اليوم ياسر عرفات، وتحدثنا في بعض احتياجات عيادة صامد التي تهتم باللاجئين الفلسطينيين، مثل نقص الأنتي بيوتكس بصورة كبيرة، وقد حصلت منه على تصريح مرور موقع منه شخصيًّا، وسوف يساعدني هذا التصريح كثيرًا

في مهمتي. وفي أثناء اجتماعي به، دخل علينا شابٌّ يافعٌ وسيمٌ يُدعى وليد، عرَّفه ياسر عرفات بأنه رجل أعمال فلسطيني، ومن أكثر الداعمين لهم".

وبمجرد وصول رسالة "أمينة المفتي" إلى المخابرات الإسرائيلية وترجمة شفرتها، انقلب الموساد رأسًا على عقب، ليس فقط بسبب التصريح الذي حصلت عليه، والذي يعتبر كنزًا لا يقدر بثمن، وإنما أيضًا بسبب المعلومة الأخيرة في الرسالة، وذلك نظرًا إلى معرفتهم مؤخرًا بأن شخصية "وليد" رجل الأعمال الفلسطيني هي إحدى الشخصيات الوهمية التي يتحرك بها "سلامة" داخل لبنان، وهذا يعني وجود احتمال أن العدو الشبح "الأمير الأحمر" الذي أحرج الموساد والحكومة الإسرائيلية بالكامل، قد نجح أحد عملائهم في رؤيته

والجلوس معه ومصافحته، مما يعني أنهم أخيرًا سوف يتمكنون من رؤيته وصيده.

ولكن من تكون "أمينة المفتي" تلك؟ وكيف وصلت إلى مكتب القائد "ياسر عرفات" ونالت ثقته بهذة الطريقة؟ ولماذا تتواصل مع حكومة الاحتلال وتخون بلادها؟

(10)

أمينة المفتي

"أمينة المفتي" هي شابة وُلِدت في عام 1939 م، لأسرة شركسية مسلمة هاجرت إلى الأردن منذ سنوات طويلة، وتبوأت مراكز سياسية واجتماعية عالية، فوالدها تاجر مجوهرات ثري، وعمُّها برتبة لواء في البلاط الملكي، أما أمها فهي سيدة مثقفة تجيد أربع لغات، وذات عَلاقات قوية بسيدات المجتمع الراقي، وهي أصغر أخواتها، لذا حظيت بالدلال منذ صغرها، فطلباتها كانت أوامر واجبة النفاذ، فلا تُرفض ولا تُؤجَّل، الأمر الذي انعكس بالسلب على تنشئتها وتكوين شخصيتها، إذ باتت أنانية، مغرورة، سريعة الغضب، شرسة الطباع، تعتقد أنها تستطيع أن

تشتري أيَّ شيء أو أيَّ شخص. كان هذا عن طباعها ومستواها الاجتماعي، أما عن مستواها الدراسي، فلم يختلف كثيرًا عن مستوى طباعها، إذ كانت فاشلة في تحصيلها المواد الدراسية، وفي الثانوية العامة بالكاد حصدت درجات متوسطة أهَّلتها للالتحاق بإحدى الكليات في الجامعات الأوروبية، في تقليد مُتَّبع ومعروف بين أبناء الأثرياء في الأردن.

وبالفعل في عام 1957 م، التحقت بكلية الطب جامعة فيينا، قسم علم النفس الطبي (Medical Psychology)، لتعرف في خلال وجودها في فيينا على حياة التحرر الخالية من أي قيود، إذ بدأت بالتدخين ثم تعاطي المخدرات، وشيئًا فشيئًا تعرَّفت على صديقتها اليهودية "سارة بيراد" التي شاركتها السكن والدراسة،

والتي أقنعتها بعدم ممارسة الجنس مع الرجال، ففي ذلك راحة للبال من غدر الرجال ومشاكل الحمل والإجهاض، وأنها إذا أرادت إشباع رغباتها الجنسية، فكل ما عليها هو ممارسته مع النساء، لتمارس بذلك معها السحاق ليل نهار حتى أدمنته، وباتت لا تستطيع الاستغناء عنه، لتشاركها بذلك الشذوذ في حياتها أيضًا، وتصبح أقرب إليها من حبل الوريد.

وفي زيارة لأسرة "سارة" في "وستندورف"، تعرفت "أمينة" على "موشيه بيراد" شقيق "سارة" الأكبر الذي كان يعمل طيارًا عسكريًّا برتبة نقيب، ويكبرها بسبع سنوات، الذي ما إن اقتربت منه حتى عشقته لتسلِّم له جسدها ويغرقا سويًّا في بحور اللذة والشهوة مرة بعد مرة وعامًا بعد عام.

وفي أحد الأيام، وبينما كانا يعبران معًا جسرًا خشبيا

قديمًا في المدينة، استوقفها "موشيه" فجأة ليسألها

قائلًا: أمينة هل تتزوجينني؟

ودون تفكير أجابته، وهي تحضنه في عنف: أوه موشيه

حبيبي! نحن بالفعل زوجان يا عزيزي.

إلا أنه قاطعها بحسمٍ ملاطفًا: لكني أريده زواجًا رسميًّا في

المعبد.

وبالفعل في معبد شيمودت، اعتنقت "أمينة المفتي"

الديانة اليهودية، وتزوجت "موشيه"، لتستبدل باسمها

الاسمَ اليهودي الجديد "آني موشيه بيراد".

وفي صيف عام 1972 م، وبينما هي جالسة مع زوجها

تتصفَّح إحدى الصحف المحلية، لمحت إعلانًا لفت

نظرها، كان مضمون الإعلان أن إسرائيل تطلب

متطوعين من يهود أوروبا للالتحاق بجيش الدفاع مقابل مرتبات ومزايا عديدة مغرية، فبدأت "أمينة" -أو إن صح القول "آني"- تلح على زوجها ليوافق على هذا العرض وأن يسافرا معًا إلى إسرائيل، بخاصة أنه سيحصل على جواز سفر إسرائيلي ومسكن في إسرائيل، وأنها بمرافقته إلى هناك ستودِّع الخوف إلى الأبد، بعيدًا عن الأهل والأقارب والعرب وأي أحد قد يعكر صفو حياتهما.

لكن "موشيه" -الذي كان يسعى إلى العمل في إحدى شركات الطيران المدنية- عارضَ الفكرة ورفضها بدعوى أن إسرائيل والعرب في حالة حرب لا تهدأ حتى تشتعل، ما دام يوجد أرضٌ محتلة وشعوبٌ عربية ثائرة، إلا أنه مع إلحاحها المتواصل ليل نهار، تقدَّم بأوراقهما للسفارة الإسرائيلية، ليتم قبولها وتعيينه ضابطًا في سلاح

الطيران الإسرائيلي برتبة رائد، وتقضي معه أيامًا في حلم جميل كما لو كانت في الجنة.

إلا أن هذا الحلم كان شأنه شأن كل الأحلام، لا بد له من نهاية، فلا شيء دائم في هذه الحياة. ففي أواخر يناير عام 1973 م، استيقظت على كابوس قلب حياتها بالكامل رأسًا على عقب، إذ أسقطت المدفعية السورية طائرته، واعتُبِر من لحظتها مفقودًا، وقد دفعتها هذه الحادثة -نتيجةً لإحساسها بالذنب الشديد تجاه زوجها الحبيب- إلى الانضمام للموساد كنوعٍ من التكفير عن ذنبها، والانتقام من قاتليه السوريين والفلسطينيين.

المهم، نعود مرة أخرى إلى الوضع داخل الموساد. كاد الموساد أن ينفجر نتيجة لهذه المفاجأة المزلزلة، ولذا



وعلى وجه السرعة تم إرسال رسالة إلى "آني" تنصُّ على إجراء مقابلة عاجلة في النمسا لتنهي عملها في مستشفى مخيم شاتيلا، وطلب السفر إلى فيينا بحجة تسجيل اسمها لدى إحدى جمعيات الطفولة الدولية.

وهناك في شقتها الخاوية بين الجدران الصمَّاء والفراش البارد، جلستْ "آني" تنتظر عملاء الموساد، في حين كانت تعتصرها ذكرياتها مع عشيقها "موشيه براد"، فأخذت تطوف بالغرف من جديد تتحسس الأرائك والأدراج وأحذية "موشيه" القديمة، وتقلب صفحات الألبومات وتتلاحق أنفاسها في اضطراب وشجن. وفي خضم هذا الصراع الداخلي الذي كانت تعيشه "آني"، رن جرس الباب لتفتحه وتجد أمامها ضابط الحالة الخاص بها، ومعه "يوسف بن بورات" خبير اللاسلكي، و اثنان من أمهر

رسامي الموساد لرسم صورة تقريبية لملامح الأمير الأحمر وسمات وجهه المميزة، إلا أنه في كل محاولة لوصفها له كانت تفشل في الوصول إلى صورته الحقيقية، فالشاب الذي كان في ريعان شبابه وفتوته كان يتميز بوسامةٍ مدهشةٍ ورجولةٍ جادةٍ رصينة، الأمر الذي أعجزها عن وصف ملامحه حسبما قالت، لكنها في النهاية -بعد أن فشلت في محاولة وصف صورته- ربطت بين خطوط وجهه ووجه المغني الأمريكي "ألفيس بريسلي" مطرب الجاز الشهير المنتحر، إلا أنها عندما ركزت نظرها مليًّا على عدة صور لـ"بريسلي"، عادت ونفت التشابه بينهما، قائلةً إن سلامة أكثر وسامة ورجولة منه، ليفشل جهاز الموساد مرة أخرى في التعرف على وجه الأمير الأحمر.



وكيلا تكون الزيارة بلا جدوى، تم تدريبها على كيفية استخدام أحدث أجهزة اللاسلكي في إرسال واستقبال الرسائل المشفرة. ونظرًا إلى وجود "آني موشيه" في فيينا، كان من الطبيعي أن تستغل تلك الفرصة في زيارة أهل زوجها، إلا أنها في أثناء وجودها هناك تخلت عن أهم قواعد الجاسوسية، ألا وهي السرية المطلقة، إذ تفاخرت أمامهم جميعًا بأنها تثأرلـ"موشيه" كل يوم من القتلة العرب، وتنتقم منهم دونما رحمة أو شفقة، إذ قصَّتْ عليهم كثيرًا من أسرارعملياتها في بيروت، غيرمدركةً أن "سارة" شقيقة زوجها المنخرطة في جماعات الهيبيزكانت في تلك الأيام تصادق شابًا فلسطينيًا قتل الصهاينة والده، لتعود بعدها إلى بيروت في صباح السادس من أكتوبرعام 1973 م، وترسل أولى رسائلها.

"وصلت بسلام. الأمير الأحمر في أوروبا. وعدني مارون بأن يأخذني معه إلى مبنى الهاتف المركزي. غادر جورج حبش إلى تونس سرًا. رجاله يقاتلون سبعة من رجال حواتمة. أبو عمار بالبيت مصاب بالبرد. شحنة أدوية وصلت سرًّا من رومانيا إلى القيادة. تحياتي".

استقبل الموساد رسالة أمينة بشيءٍ من الاطمئنان والفرح، فالرسالة كانت واضحة الشفرة بلا أخطاء، والأخبار التي حوتها مهمة جدًّا، استدعت دخولها إلى غرفة التحليل والمتابعة على الفور، وسرعان ما تسلمت رسالة بُثَّتْ إليها من إسرائيل، ورد فيها: "تهانينا بالوصول. اهتمي بتحركات الأمير. لا تهتمي بمارون الآن. من يطبب أبو عمار "عرفات". ماذا ببطن الباخرة كيفين في صيدا؟ نريد معلومات عن مخازن الأسلحة بمخيم

البداوي في طرابلس. ومراكز التدريب الجديدة في قلعة شقيف".

إلا إنه ما إن تهيأت "آني" لجمع ما طُلبِ منها من معلومات حتى انطلقت شرارة حرب السادس من أكتوبر، ونجح المصريون في عبور خط بارليف المنيع، وفي الوقت الذي عمَّتْ فيه مظاهر الفرح كل أرجاء بيروت، كادت "آني" أن تنهار داخل منزلها من شدة الحزن الممزوج بالصدمة، إلا أنه لم يكن يوجد وقت للانهيار، فكان عليها أن تبدو بمظهر المتحمسة للنصر والراغبة بالمشاركة فيه مهما كان الثمن، فنشطت في عملها التطوعي كطبيبة عربية تجوب أنحاء لبنان، في حين كانت في الحقيقة جاسوسة تمد الموساد بالمعلومات الحيوية عن تحركاتٍ في الجنوب

للفدائيين الذين شحنتهم انتصارات الجيوش العربية فازدادوا استبسالًا وضراوة.

وعاد "علي حسن سلامة" من أوروبا لترتيب خطط العمليات الجديدةن إذ انطلق رجال المقاومة في الجنوب اللبناني يضربون في العمق الإسرائيلي بلا كلل، مما استدعى "أمينة" إلى أن تترك بيروت لتنتقل إلى صور ومعها جهاز اللاسلكي الحديث الذي حازته من الموساد، إذ عكفت يوميًّا على بثِّ رسائلها التي وصلت في أحيان كثيرة إلى خمس رسائل مهددة حياتها بالخطر، واضطر جهاز الموساد أمام سيل رسائلها إلى فتح جهاز الاستقبال على التردُّد المتفق عليه لساعات طويلة على مدار اليوم.

وفي إحدى جولاتها في الجنوب اللبناني، وتحديدًا يوم الحادي عشر من أكتوبر، وبينما كانت في منطقة "بنت جبيل" على مسافة خمسة كيلومترات من الحدود الإسرائيلية، فوجئت بوجود جمع من زعماء الجبهات الفلسطينية برفقة "أبو إياد" يتفقدون جبهة القتال، ويصيحون في الجنود فيثيرون حماستهم.

في لحظتها تملكها الحقد والغضب، وبمنتهى الجرأة اختلت بنفسها داخل أحد الكهوف، وبثت رسالة عاجلة إلى الموساد: "عاجل جدًّا ومهم، أبو إياد وقيادات الجبهات في بنت جبيل. موقعهم مئة وخمسون مترًا شرق القبة العلوية بجوار فنطاس المياه بين شجرتي الصنوبر. اضربوا الموقع كله ودمروا السيارات الجيب والليموزين.



سأكون على بُعد معقول منهم. سأفتح الجهاز لأربع دقائق".

ظلت "آني" مترقبة داخل كهفها تمر عليها الثواني كالأعوام في انتظار الرد، وقبل انتهاء الدقائق الأربع التي حددتها ببضع ثوانٍ، جاءتها رسالة تقول: "ابتعدي عن الرتل وانبطحي أرضًا عند ظهور الطائرات".

أغلقت "أمينة" الجهاز بعدما ترجمت الرسالة، واستعدت لتشهد بنفسها المجزرة، لكن يبدو أن القدر كان له رأي آخر، فبمجرد أن أغلقت "آني" جهاز اللاسلكي، شاهدت رتل سيارات القادة يتحرك شمالًا في حين وقفت عميلة الموساد تتحسر وتقلب عينيها في السماء منتظرة قدوم الطائرات في أي لحظة، لتمر عليها



اللحظات تلو اللحظات والدقائق تتبعها الدقائق في انتظار قاتل، لتستنفد "آني" ما تبقى لها من صبر بعد مرور عشرين دقيقة كاملة فتحت على إثرها جهاز اللاسلكي لتبث رسالتها: "لقد تحرك الهدف إلى الشمال "طريق تبنين" منذ واحدة وعشرين دقيقة. سيارة أبو إياد سوبارو سوداء".

وما إن بثت رسالتها وأغلقت الجهاز حتى لمحت طائرتَيْ ميراج تطلقان عددًا من الصواريخ والقنابل زِنة ألف رطل على الموقع الذي حدَّدَته في السابق، ثم ارتفعتا إلى عَنان السماء لتنقضَّا من جديدٍ على الموقع نفسه، لكن هذه المرة بفتح خزانات النابالم الحارقة، كل ذلك وهي لا تزال بالكهف ترقب تناثر الأجساد البشرية كالشظايا في الهواء، فيصدر عنها فحيحٌ رهيبٌ كحيةٍ شوهاء، وتضحك في

هستيريا مجنونة مشبعة بالحسرة والشماتة، حسرة على انعتاق "أبو إياد" ورفاقه، وشماتة في هزيمة بضعة جنود امتزجوا بالتراب والدم.

وهكذا حملت "أمينة" جهاز اللاسلكي بحقيبتها في تَجوالها بالجنوب اللبناني طوال معركة أكتوبر 1973 م، متنقلة بين المستشفيات الميدانية والمواقع العسكرية، تسعف الجرحى من المصابين بداء وشاياتها، وتستمد من الحقد جرأتها وقوتها.

وبعد أن انتهت حرب أكتوبر بقرار وقف إطلاق النار، و افقت كلٌّ من مصر وسوريا -دولتا المواجهة- على قرار مجلس الأمن رقم "ثلاث مئة وثمانية وعشرين" الذي نص على عودة السلام الدائم والعادل في الشرق الأوسط، إلا

أن الجناح العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية لم يرتح لهذا الوضع على الإطلاق، فأقرت المنظمة مواصلة الكفاح المسلح بناءً على رغبة الثورة الفلسطينية. وفي بدايات العام الجديد 1974 م، شكلت عدة منظمات فلسطينية -كان من ضمنها "أيلول الأسود"- ما سُمِّي بجبهة الرفض، التي كان المتحدث باسمها هو الدكتور "جورج حبش" زعيم الجبهة الشعبية، مما جعل العمليات الفدائية الفلسطينية أكثر شراسةً وفاعلية بعد أن أصبحت أكثر تنظيمًا ضمن جبهةٍ موحَّدة.

في خلال تلك المدة، كانت العمليات الفدائية الفلسطينية قد أربكت إسرائيل وزعزعت أمنها تمامًا، فالفلسطينيون أرادوا الإعلان عن وجودهم بشتَّى الطرق بما فيها العنف من خطف وتفجير، كأن لسان حالهم كان يقول إن العدو

لم يكن يملك سلاحًا قَط سوى العنف، وإذا كانت إسرائيل اعتمدت العنف قانونًا لها، فالفلسطينيون أيضًا لا حلَّ لهم إلا بالسلاح ذاته دون غيره، مما ترتب عليه انتشار سحب الخوف السوداء فوق رؤوس الإسرائيليين، وفقدان الموساد هيبته التي دومًا ما كان يتفاخر بها، وبات الشعب الإسرائيلي كله يرتجف عند سماع أزيز طائرة، أو فرقعة إطار سيارة، أو انفجار عادم دراجة بخارية مسرعة.

وبطبيعة الحال، انتقل الضغط العصبي داخل الموساد إلى "آني" في لبنان، فالأوامر كثيرة والمطلوب منها بات فوق طاقتها بكثير، ولذا لم تجد مفرًّا من تكوين شبكتها الخاصة التي سوف تساعدها على أداء مهمتها على أكمل وجه. وإحقاقًا للحق، لم تبذل "آني" جهدًا كبيرًا في البحث

عن تلك العناصر وتجنيدها، إذ كانوا بالفعل على تواصلٍ معها، ألا وهم (مارون الحايك – مانويل عساف – خديجة زهران)، وكان كلٌّ من الأول والثاني يعملان في وزارة الاتصالات، ومن خلالهما نجحتْ في الحصول على كنز لا يقدَّر بثمن، ألا وهو التنصت على التليفونات السرية للمنظمات الفلسطينية وزعماء الجبهات وعناوين إقامتهم في حي الريحانة الشهير. أما العنصر الثالث، فكانت تمتلك محلَّ ملابس، ومهمتها تتلخَّص في مصادقة النساء المتزوِّجات من ضباط فلسطينيين، واستدراجهن إلى الخوض في السياسة والأسرار العسكرية.

ولضمان ولائهم، كان لزامًا على "آني" أن تغرقهم بالأموال، وعدد لا يحُصى من الليالي الحمراء التي كانت



تقضيها مع كلٍّ منهم على حِدة، والتي -بالطبع- كان يتم تسجيلها، لاستخدامها كورقةِ ضغطٍ عند الحاجة.

وسريعًا بدأت شبكة العملاء تؤتي ثمارها، إذ باتت الرسائل تتدفق على جهاز الموساد كالسيل الجارف، وكانت أولى تلك الرسائل هي التي أرسِلَتْ في ليلة العاشر من أبريل، وكان نصها: "عملية إرهابية ستُنفَّذ غدًا داخل الأراضي الإسرائيلية. التسلل بطريق البحر".

وبالفعل في اليوم التالي، اقتحمت وحدة من الفدائيين مدينة كريات شمونة الإسرائيلية، وفتحوا نيران مدافعِهم بكثافة، فقتلوا ثمانية عشر إسرائيليًّا، وأصابوا أكثر من ثمانية وأربعين بجروح، وصرَّح مسئول فلسطيني قائلًا: "إن هذه العملية ما هي إلا بداية حملةٍ



للقوى الثورية داخل إسرائيل لإعاقة الحلِّ السلمي العربي".

وعلى الرغم من أن تلك العملية كانت أشبه بضربة شديدة في رأس إسرائيل، فقد كانت البداية فحسب، فبعد عدة أيام، وبينما تشتد وطأة العمليات الفدائية في قلب إسرائيل، أرسلت "آني" رسالة أذهبت عقولَ الكبار قبل الصغار في الموساد، إذ زفَّتْ إليهم خبرًا عن تسلل سبعة فدائيين إلى قلب إسرائيل بهدف تفجير مستعمرة جيشر هازيف، على بُعد ستة كيلومترات شمالي نهاريا، بمناسبة عيد إسرائيل القومي. فانطلقت قوات الأمن تطوِّق المستعمرة، و انتشرت نقاط التفتيش في كل الطرق.

ومع أولى بشائر الخامس عشر من مايو عام 1974 م، كانت المعركة الشرسة قد بدأت بالفعل، لكن في منطقةٍ أخرى أبعد عن تصوُّرهم وتوقُّعهم، إذ وقعت العملية هذه المرة في قرية معالوت، إذ حاصر الفدائيون السبعة القريةَ وأمطروها بوابلٍ من قذائفهم الصاروخية، بعد أن سيطروا تمامًا على سكانها والطرق المؤدية إليها، كما دمَّروا عدة سيارات عسكرية حاولت الالتفاف لعزلهم عن القرية. وبعد ست ساعات ونصف، أسفرت المعركة عن مقتل خمسة وعشرين إسرائيليًّا وإصابة مئة وسبعة عشر آخرين، عندها وقفت "جولدا مائير" أمام كاميرات التليفزيون في الكنيست وهي تكفكف دموعها وتقول: اليوم عيد ميلاد دولتنا الخامس والعشرون، وقد أحاله الإرهابيون إلى يومٍ مريرٍ بالنسبة إلى إسرائيل.

ولكيلا نبخس هذه الشبكة حقها في الخيانة، فلم تكن جميع المعلومات التي ترسلها "آني موشيه" إلى الموساد منقوصة أو متأخرة مثل تلك الرسائل، ففي فجر الثالث والعشرين من مايو عام 1974 م، اتصل بها "مارون الحايك" ليخبرها بنبأ مهم فتحت على إثره جهازها اللاسلكي وأرسلت رسالة إلى الموساد كان نصها: "بعد سبع وثلاثين دقيقة من الآن، سيهاجم ثمانية من الفدائيين المتسللين مستعمرة زرعيت. تسليحهم رشاشات كلاشن وقنابل 57 ملم/م.د".

وبالفعل صدقت المعلومة تمامًا، وأطبق الإسرائيليون على الفدائيين الثمانية، فقتلوا ستة منهم وأسروا اثنين.

وفي أحد الأيام، أرادت "آني" أن تتجسَّسَ بنفسها على مكالمات القادة الفلسطينيين، فتوجهت إلى "مارون الحايك" الذي ساعدها على تلبية أمنيتها، فاقتحمت الخط السري الخاص بمكتب "جورج حبش" الذي لاحظت بعد عدة مكالمات له أن ترتيباتٍ عسكريةٍ يتم إعدادها بصورة سرية. وفي غمرة انفعاله، نطق اسم "كيبوتزشامير" سهوًا، فلم تهمل عميلة الموساد الأمر، و أبلغت رؤساءَها على الفور بما سمعته. وفي السادس عشر من يونيو، كان خمسةٌ من الفدائيين قتلى على مشارف قرية كيبوتزشامير، بُوغِتوا قبل أن يستعملوا رشاشاتهم الآلية.

وفي الأول من أكتوبر، وبينما كانت "آني موشيه" جالسة في غرفة المراقبة السرية بالسنترال الذي يعمل فيه

"مارون الحايك" -تتجسس على مكالمات القادة، شعرت بالملل لعدم وجود أي فحوى أحاديث مهمة بينهم، فتساءلت في نفسها: "لِمِ لا أفتح خط الأمير الأحمر؟! لعلِّي أجد ما يفيدني عنده".

وبالفعل فتحت الجاسوسة خط الأمير الأحمر، الذي كان يتحدَّث مع أحد رجاله، المدعو "أبو نضال"، في ثورة عارمة قائلًا: "التل وحده لا يكفي، علينا برأس الحية صديق اليهود، ومؤتمر الرباط فرصتنا الأكيدة، ولنكن حذرين وشجعانًا، الله معك يا أبو نضال".

صُعقت العميلة الأردنية مما سمعت، فما قاله ليس له إلا معنًى واحد، ألا وهو وجود مخططٍ لاغتيال صديق



إسرائيل الوحيد من العرب آنذاك، "الملك حسين" في

قمة الرباط.

ولكن لماذا يريد الأمير الأحمر اغتيال "الملك حسين"؟

(11)

ما بين الرباط والأمم المتحدة

الحقيقة، إن فكرة اغتيال "الملك حسين" لم تكن ناشئة لدى الفلسطينيين من فراغ، فالقادة الفلسطينيون الحاضرون في المشهد لم ينسوا قط ما فعله بهم في أيلول الأسود. وما زاد الطين بلة، هو أنه في أثناء انعقاد القمة العربية في الجزائر في المدة ما بين يومَي السادس والعشرين والثامن والعشرين من نوفمبر عام 1973 م، تبنَّت القمَّة قرارًا، يعترف لأول مرة بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلًا شرعيًّا ووحيدًا للشعب الفلسطيني، بموافقة الدول العربية جميعها، باستثناء "الملك حسين" الذي لم يأتِ هذا القرار على هواه، إذ كان يعتبر

نفسه هو الوحيد صاحب هذا الحق، لذا امتنع عن التصديق عليه، ولهذا لم يُعتمَد القرار وبقي سرًّا.

ونظرًا إلى تمسُّك كلِّ طرفٍ بمواقفه، وسعيًا من الرئيس السادات إلى حفظ ماء وجه "الملك حسين"، التقى به في الرابع عشر من يوليو عام 1974م، ليصدرا بيانًا مشتركًا يعترف فيه السادات "للملك حسين" بأحقيته في التحدث باسم الفلسطينيين المقيمين في الأردن الذين يزيد عددُهم على مليون النسمة، في حين يعترف فيه "الملك حسين" بأنَّ منظَّمة التحرير هي الممثل الشرعي للفلسطينيين، باستثناء أولئك الذين يعيشون في المملكة الهاشمية، معلنين أنه سوف يتم اعتماد ذلك البيان بقرارٍ عربيٍّ في القمة العربية التالية التي ستُعقَد في المغرب في السادس والعشرين من أكتوبر عام 1974 م. وبطبيعة الحال، كان

يستحيل على منظمة التحرير أن تقف مكتوفة الأيدي أمام كل تلك التطورات، ولذا كانت عملية الرباط التي نفذتها أيلول الأسود.

وكانت أولى خطوات تلك العملية، تكليف "فخري العمري" رئيس قسم العمليات والاغتيالات في منظمة أيلول الأسود، وأحد الذين شاركوا الأمير الأحمر دورته الأمنية المتقدمة في القاهرة، بتنظيم العمل وتشكيل فريق يتولى المهمة. وبالفعل لم تمض عدة أيام إلا ونجح "العمري" في تشكيل فريقٍ يتكون من ثلاثة عشر فدائيًّا زودهم بجوازات سفر مزورة لا تحتاج إلى تأشيرة دخول إلى المغرب، بمساعدة كلٍّ من (أبو وليد العراقي – أبو رجائي – أبو هشام)، الذين توجهوا جميعًا إلى المغرب بصورة

فردية، على أن يظلَّ كلٌّ منهم في فندقه، بانتظار تعليمات "العمري" للتجمُّع في النقطة المحددة والمتفق عليها سلفًا.

وفي أثناء وجود "العمري" و"أبو رجائي" في الدار البيضاء، التقيا بالصدفة برجل أعمال ليبي يعرفانه، اشتهر عنه حماسه ودفاعه عن القضية الفلسطينية وتأييده أعمال العنف الثوري، إلا أنه لم تكد تمضي عدة ساعات على هذا اللقاء، حتى اكتشف كلٌّ من "العمري" و"أبو رجائي" أنهما مراقبان، لأن هذا الرجل الليبي لم يكن ببساطة سوى عميلٍ للأمن المغربي.

وبعد اكتشافهم المراقبة التي وضعت عليهما، قرَّرَا في الحال مغادرة المغرب، إلا أن الوقت لم يسعفهما، إذ باغتهما الأمن المغربي واعتقلهما على الفور، في حين

استولت عناصر المخابرات المغربية على غرفتيهما لاستقبال المكالمات الهاتفية والزوار المحتملين. وبالفعل لم تمر عدة أيام إلا واستقبل الأمن المغربي مكالمة من "طنجة" لـ"أبو هشام" -المسئول عن إدخال الأسلحة للمغرب وتسليمها إلى الفدائيين- يذكر فيها ميعاد وصوله إلى الدار البيضاء، ولأنه لم يلتزم قواعد الأمن وذكر اسم الفندق الذي سوف ينزل فيه، فقد تم اعتقاله هو الآخر.

وبهذه الطريقة، توالت الاعتقالات، ليصل عدد المعتقلين إلى أربعة عشر عنصرًا من "أيلول الأسود". وبناءً عليه، سارع الأمن المغربي برفع تقريره إلى "الملك حسين" مبلغًا إياه بوجود مخططٍ لاغتياله، وذلك في حضور كلٍّ من الرئيس السادات والملك فيصل والرئيس النميري، وقد أشار التقرير أيضًا إلى اتهام "أبو إياد" بكونه ضالعًا في هذا

المخطط، إلا أن القائد "ياسر عرفات" دافع عن "أبو إياد" دفاعًا مستميتًا، وعندما عرضت عليه صور مَن تم اعتقالهم، تعرف على "العمري" و"أبو رجائي"، وأخبر "الملك حسين" أن هؤلاء مطرودون من فتح، ويعملون في أيلول الأسود، ولا علاقة لفتح بالأمر (أو هكذا أرادهم أن يظنوا). وبينما كان "ياسر عرفات" يدافع عن رفيق دربه "أبو إياد"، كان الأخير قد تحرك سريعًا لمنع وصول الأسلحة إلى المغرب حتى لا يتوفر الدليلُ الماديُّ الذي يدين الفدائيين ويبقيهم في السجن مدى الحياة على أقل تقدير.

ولهذا أمَرَ أحد وكلاء أيلول الأسود بأن يبلغ السلطات الإسبانية عن شحنة الأسلحة، وهو ما تم بالفعل، إذ أوقف الأمن الإسباني الشحنة وصادرها، وبهذا لم يكن

أمام الأمن المغربي سوى أن يستمر في الضغط على الفدائيين للاعتراف بمسئولية "أبو إياد" أو "أبو عمار" عن العملية. ولأن الجميع اعترف على "فخري العمري" بأنه المسئول عن العملية، فقد نال النصيب الأكبر من التعذيب.

في الوقت نفسه، ولكن في الرباط، عُقِدت القمة العربية في جوٍّ من الرعب والشائعات، إلى درجة أن أولئك المعروفين بانحيازهم الكامل إلى "الملك حسين"، أصبحوا فجأة مدافعين مستميتين عن منظمة التحرير الفلسطينية، إذ كانوا يعتقدون أن أيلول الأسود نشرت عشرات المسلحين داخل مقر القمة لقتل أي شخص سوف يؤيد "الملك حسين" في رغباته كائنًا من كان، إذ كان

مشهد "وصفي التل" وهو غارق في دمائه ماثلًا أمام أعينهم.

أما "أبو عمار" و"أبو إياد" فقد حضرا القمة العربية وحصلا على ما يريدان دون أي دليل إدانة لهما، بفضل تماسك "أبو محمد" ورفاقه في التحقيق. وبهذا نجحت منظمة التحرير الفلسطينية في الحصول على الاعتراف العربي بكونها الممثل الشرعي والوحيد للفلسطينيين دون إراقة نقطة دماء واحدة.

وفي الثاني والعشرين من نوفمبر عام 1974 م، دخل "ياسر عرفات" بكبرياء في ردائه العسكري حاملًا مسدسه في جنبه الأيمن أمام الوفود المجتمعين في الأمم المتحدة بنيويورك، وسط استقبال حافل من مندوبي الدول

العربية ودول العالم الثالث، ليلقي خطابًا أقل ما يقال

عنه أنه تاريخي، استمر قرابة التسعين دقيقة، طالب

خلاله بإلغاء دولة إسرائيل، و إقامة دولة تتكون من

العقائد الدينية الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية)،

مختتمًا خطابه بمقولته التاريخية الخالدة:

"سيدي الرئيس، إن منظمة التحرير الفلسطينية هي

الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وهي بهذه

الصفة تنقل إليكم تلك الرغبات والأماني، وتحملكم

مسئولية تاريخية كبيرة تجاه قضيتنا العادلة.

ولقد جئتكم يا سيادة الرئيس بغصن الزيتون مع بندقية

ثائر، فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي.

سيدي الرئيس، إن الحرب تندلع من فلسطين، والسلام يبدأ من فلسطين".

ووسط تصفيق حار من الدول الأعضاء بالأمم المتحدة، نزل الرئيس "ياسر عرفات" من المنصة رافعًا يديه بإشارة النصر، ومُحيّيًا السادة الأعضاء في ظل غياب ممثلي إسرائيل والأردن تعبيرًا عن رفضهم وجوده في الأمم المتحدة، ونظرات الغيظ تملأ أعين ممثلي الدول الداعمة لدولة الاحتلال.

وعندما سُئِلَ مندوب إسرائيل بالأمم المتحدة عن تعليقه على وجود منظمة التحرير الفلسطينية في الأمم المتحدة، رد قائلًا: إن هذه المنظمة ليست منظمة تحرير وطنية، بل هم عصابة من القتلة. وباختصار، إن قتلة الرياضيين

بميونيخ وقتلة الدبلوماسيين في الخرطوم لا ينتمون إلى

هذا المجتمع الدولي المتحضر، وإننا سنتعقب هؤلاء

القتلة انتقامًا لضحايانا.

ولكن ضرب مؤيدو منظمة التحرير جميعهم بذلك

التصريح عرض الحائط.

وفي مساء اليوم نفسه، دعا سفير مصر بالأمم المتحدة

"عصمت عبد المجيد" وفد منظمة التحرير الفلسطينية

الذي يزيد على مئة فرد يتصدرهم الرئيس "ياسر عرفات"

في مشهد مهيب نحو قاعة الطعام في المبنى الرئيسي للأمم

المتحدة، إذ أقيم لهم احتفالٌ أشبه باحتفالات النصر.

وكيف لا وقد نجح أعضاء المنظمة في الحصول على

الاعتراف بالمنظمة مُمثِّلًا شرعيًّا ووحيدًا للشعب

الفلسطيني ومنحها صفة مراقب في الأمم المتحدة في أول سابقة في التاريخ، أن تشارك حركة تحرر وطني رسميًّا في المنظمة الأممية، بالإضافة إلى اعتراف الأمم المتحدة بحق الشعب الفلسطيني في السيادة والاستقلال الوطني.

وبينما كان "ياسر عرفات" يتحرك داخل القاعة الرئيسية في مقر الأمم المتحدة، كان يوجد شخص لم يتركه قط وملازمًا له كظله، وقد كان هذا الشخص هو المفاجأة الحقيقية لذلك الاحتفال، فهو قائد الوحدة رقم سبعة عشر المكلفة بحراسة الرئيس "ياسر عرفات"، وكذا نائب رئيس جهاز المخابرات الفلسطينية "رصد"، إنه الأمير الأحمر "علي حسن سلامة".



وكان ظهوره في الأمم المتحدة بجوار القائد "ياسر عرفات" هو أول أخطائه القاتلة، لأنه بذلك قد سمح للمصورين أن يأخذوا صورًا حديثةً له من كل الزو ايا، متخليًا عن أهم سلاح كان يلاعب الموساد به، وهو الغموض. وذلك بعد أن تم تكليفه بالتعامل بصورة سياسية مع الدول، لِمَا تمتَّع به من كاريزما ساحرة تجذب الجميع إليه، وإجادته الفرنسية والإنجليزية والألمانية، وهذا بالطبع علاوة على خبرته في التواصل مع الحركات التحررية حول العالم.

وكان من ضمن ما فعله في هذا الصدد، حوار صحفي بدأه الصحفي قائلًا: ما هو تعليقك على حادثة ليلهامر التي قُتِل فيها أحمد بوشيقي عن طريق الخطأ اعتقادًا من الموساد أنه أنت؟

الأمير الأحمر: أولًا، أقدم تعازيَّ الحارة لأسرة القتيل أحمد بوشيقي، والحقيقة أنني كنت في أوروبا بالفعل عندما قتل الموساد بوشيقي في ليلهامر، وكان بوشيقي يعمل موظفًا في (Hallenbad)، ولم يكن يشبهني صورةً ولا هيئة، لكن الموساد يستخدم رجالًا أغبياء للمهام الإرهابية، وهو يحاول بكل طريقة أن يقتل الفلسطينيين على سبيل الدعاية، فحياتي لم تكن آمنة بسبب مهارتي، لكن بسبب غباء رجال الموساد.

الصحفي: إذًا اسمح لي أن نعود قليلًا بالزمن إلى الوراء، وأسألك عمَّا حدث في ميونخ. ألستَ نادمًا على ما حدث هناك؟

الأمير الأحمر: بالتأكيد لا، وذلك لسببين، أنني أشعر بالندم في حالة تسببي بمقتل أحد المدنيين الأبرياء الذين لا ذنب لهم في شيء، إلا أنه -وللمعلومة- لا يوجد مواطن واحد في دولة الاحتلال مدني، وإنما الجميع بلا استثناء مسجلون ضمن قواتهم المسلحة سواء قوات النخبة أو الاحتياط. ثانيًا وهو الأهم، المتسبب الرئيسي في مقتل الرهائن جميعهم هو دولة الاحتلال نفسها، إذ أصدرت رئيسة وزرائها وقتها قرارًا بعدم التفاوض مع أي أحد حتى ولو وصل الأمر إلى قتل رعاياها جميعًا، فإذا أردت أن تلوم أحدًا فيجب أن تلومهم هم وليس نحن.

الصحفي: ولكن إسرائيل على لسان مندوبها في الأمم المتحدة تقول إنكم لستم منظمة تحرير وطنية، بل عصابة من القتلة، وإنكم بما فعلتموه من قتل

الرياضيين بميونيخ والدبلوماسيين في الخرطوم، لا تنتمون إلى هذا المجتمع الدولي المتحضر، وأنهم سيتعقبونكم أينما كنتم انتقامًا لضحاياهم.

الأمير الأحمر: إذا كان هو يقول هذا، فما هو رده عمن قتلهم هو ورفاقه من مجرمي الحرب في مذابح (بلدة الشيخ – دير ياسين – قرية أبو شوشة – اللد – قلقيلية - كفر قاسم – خان يونس) وغيرهم الكثير والكثير؟ ليس ذنبنا كفلسطينيين أننا نتحدث عن أشخاص كُتبُهم الدينية تطفح بالعنصرية المقيتة ضد كل من لم يكن يهوديًا، فتعاليمهم بينهم وبين بعضهم شيء، وبينهم وبين غير اليهود شيء آخر، وإليك قليلًا من كثير: "لا تسرق، لكن يسمح بغش غير اليهودي وأخذ ماله بالربا الفاحش"، "لا تقتل، لكن من يسفك دماء غير اليهود بيده يقدم

قربانًا مُرضيًا لله، وكذا لا بد من قتل غير اليهود ولو كانوا أكثر الناس كمالًا"، لا تزنِ، لكن يجوز اغتصاب الفتاة غير اليهودية متى ما بلغت ثلاث سنوات"... فما هو رأيك في هذه العقلية؟ واسمح لي بالمناسبة أن أسألك سؤالًا واحدًا، هل تستطيع أن تذكر لي اسم عشرة من رجال الصف الأول بدولة الاحتلال لم تتلوث أيديهم بدماء الأبرياء؟ لا، بل اجعلهم خمسة فقط، بل فردًا واحدًا إن أردت؟

عندها صمت الصحفي، ولم يجد إجابة عن سؤال الأمير الأحمر.

(12)

سقوط العميلة

بدأت تحل بشائر شهر فبراير لعام 1975 م، لتطالب "آني" الموساد مرارًا وتكرارًا بإنهاء مهمتها في لبنان، وأن تعود وتستقر في تل أبيب، لتظل في بيروت على أحر من الجمر منتظرة من جهاز الموساد الردَّ الذي جاءها أخيًرا على هيئة مهمةٍ طُلِب منها تنفيذُها قبل الاعتزال، ألا وهي الدخول إلى منزل الأمير الأحمر بحُجَّة تطبيب أبنائه والعناية بهم، وذلك بهدف الحصول على القوائم السرية لرجال مخابراته في أوروبا وخطط عملياته المستقبلية المطروحة. وهنا كانت المفاجأة بالنسبة إليها، فعلى الرغم من تغلغلها داخل صفوف المقاومة الفلسطينية

ووصولها إلى أكبر الرؤوس داخلها، لم تكن تعلم أن للأمير الأحمر زوجة و أبناء، إذ كان دائمًا ما يحيط شئونه العائلية بشيءٍ من الكتمان والخصوصية.

وبينما كانت أمينة تقضي إجازتها الأسبوعية في "الكورال بيتش"، التقت بالأمير الأحمر، فانتهزت تلك الفرصة وذهبت إليه لتسأله: كيف حالك اليوم؟ لقد مضى وقت طويل منذ أن التقينا آخر مرة.

الأمير الأحمر: الحمد لله، بخير.

أمينة: وكيف حال زوجتك و أبنائك؟ أتمنى أن يكونوا في خير حال؟

دُهِش الأمير الأحمر من سؤالها، فهو لم يسبق له أن حدَّثها عن زوجته أو أولاده من قبل، وبحاسته الأمنية العالية

ملأه الشك تجاهها وقرر البحث عن ماضيها، ولذا طلب من رجاله في عمَّان إعادة مو افاته ببيانات عن الطبيبة الأردنية "أمينة داود المفتي" التي يعيش أهلها في حي صويلح، أرقى وأروع أحياء عمان، فجاءه الرد بأنها بالفعل طبيبة أردنية غادرت وطنها إلى النمسا للدراسة، ولمشاحنات مع أهلها، قررت ألا تعيش في عمَّان.

اطمأن سلامة لتحريات رجاله، وكادت أن تتجدد ثقته بأمينة لولا بلاغٌ سريٌّ من أوروبا وصل إلى مكتب المخابرات، قلب الأمور كلها رأسًا على عقب، أفاد بأن شابًّا فلسطينيًّا في فر انكفورت صرَّح إلى أحد المصادر السرية بأنه تقابل مع أحد الفلسطينيين في فيينا، وبعد عدة لقاءات بينهما في حانات المدينة ومقاهيها أخبره بأن له صديقة نمساوية يهودية ماتت إثر تعاطيها جرعة زائدة

من عقار مخدر، تزوج شقيقها الطيار من فتاة عربية مسلمة وهربت معه إلى إسرائيل خوفًا من اكتشاف أمرها وملاحقة أجهزة المخابرات العربية لها، وأن الفتاة كانت تدرس الطب في النمسا، وانتقلت إلى لبنان بعدما أسقط السوريون طائرة زوجها الذي اعتُبِر مفقودًا.

كان البلاغ حاملًا نبرةً عاليةً من الشك، فلو صح هذا البلاغ، فهذا معناه وجود فتاة عربية خانت دينها ووطنها وتحالفت مع حكومة الاحتلال، مما يجعلها ليست خطرًا على المقاومة الفلسطينية فحسب، بل وعلى العرب جميعًا. لذا ونظرًا إلى خطورة الموقف، أمر الأمير الأحمر بإعادة استجواب الشاب في فرانكفورت، ولو اضطروا إلى أخذه إلى النمسا ليدلهم على الفلسطيني الآخر، وذيَّل "سلامة" أوامره بضرورة السرعة في التنفيذ.

وحتى ذلك الحين، في جوٍّ من السرية المطلقة، طلب حصر كل الطبيبات العربيات المتطوعات في المستشفيات الفلسطينية واللبنانية أيضًا.

لتمر عليه ثلاثة أيام طوال شابها الشك المخلوط بالقلق، حتى وردت أمامه قائمة طويلة ضمَّتْ أسماء سبع وثلاثين طبيبة عربية، أربع منهنَّ فقط حصلن على شهاداتهن العلمية من جامعات النمسا، وكانت إحداهن -بطبيعة الحال- هي "أمينة داود المفتي"، أو إن صح القول العميلة "آني موشيه".

حتى تلك اللحظة، لم تكن قد وردت أي معلومات قاطعة من أوروبا، ولذا لم يكن أمام الأمير الأحمر ورجاله خيارٌ



سوى وضع الطبيبات الأربع تحت المراقبة الصارمة طوال الأربع والعشرين ساعة القادمة.

وبينما كان الطقس مشحونًا بالشكوك والترقب، شعرت "آني" بعيني الجاسوسة المدربة بأن أُناسًا يرصدونها، ولا يتركون لها مساحة للتحرك بحرية كما اعتادت دائمًا، ولذا كان أول ما فكرت فيه هو التخلص من جهاز اللاسلكي، دليل الإدانة الذي سيقدمها إلى حبل المشنقة في حال تم القبض عليها، فبثت رسالتها الأخيرة إلى الموساد: "هناك من يراقبني ليل نهار منذ أمس. أنا خائفة ومرتبكة. سأموت رعبًا. أفيدوني".

لم يدُم انتظارها طويلًا، إذ جاءها الرد من الموساد بعد نصف ساعة: "ضعي الجهاز في سلة قمامة الشقة



العلوية. احرقي الشفرة. غادري بيروت بهدوء إلى دمشق بطريق البر. ستجدين رسالة في مقهى (الشام)".

تنفست "أمينة" الصعداء، وشرعت فورًا في تنفيذ أوامر رؤسائها. حملت حقيبة يدها الصغيرة والخوف يعصف بها، وغادرت شقتها لتدور بعدها في شوارع بيروت أشرس عملية هروب ومطاردة بين الجاسوسة الخائفة ومطارديها.

وفي موقف السيارات المتجهة إلى دمشق، اعتقدت "آني" أنها قد أفلتت من المر اقبة، إلا أنها بمجرد صعودها إلى الحافلة وجلوسها في مقعدها، فوجئت برجُلي أمن يقفان إلى جوارها، فألجمها الخوف، و انخرست إذ أيقنت حينها بأن مشوارها مع الخيانة قد وصل إلى آخر محطاته

الحتمية، فقررت ألا تكون نهايتها على أيدي

الفلسطينيين. وبلا وعي، انطلقت أصابعها في لحظة

كالبرق تبحث عن كبسولة سم السيانيد بين خصلات

شعرها، لكن أيدي رجُلَي الأمن كانت الأسرعِ، إذ انقضَّا

عليها كما تنقضُّ حية الكوبرا على فريستها، و اقتيدت إلى

سيارة بيجو مفتوحة الأبواب كانت تنتظر خلف الباص،

يقف إلى جوارها رجلان آخران جامدا الملامح.

وقبل أن تبلغ "أمينة" البيجو، فشلت ساقاها في حملها،

فاضطر الرجلان إلى رفعها عن الأرض رفعًا ليلقيا بها إلى

داخل السيارة التي انطلقت كالريح إلى حي الفكهاني،

تسبقها سيارة أودي تُقلُّ أربعة رجال مدججين بالسلاح.

وأمام أحد المباني بالقرب من المدينة الرياضية، سحب الرجال العميلة المغماة إلى الداخل، إذ أُودِعت في غرفة ضيقة تحت الأرض، تكبل يديها من الخلف سلسلةٌ حديديةٌ طويلةٌ رُبطت إلى الحائط.

في الوقت نفسه، لكن في أوروبا، كان رجال المخابرات الفلسطينية يلهثون خلف الشاب الفلسطيني العابث، وبرفقتهم الشاب الآخر صاحب البلاغ الذي استقدموه من فرانكفورت رأسًا إلى فيينا، فهو الوحيد الذي يمكنه التعرف عليها بسهولة، ليجوبوا به شوارع فيينا وحدائقها ومواخيرها بحثًا عن ذلك الشاب دون جدوى، كأنما انشقت الأرض و ابتلعته، وبذلك لم يصبح أمام رجال المخابرات الفلسطينية إلا حل واحد في غاية الخطورة

لاستجلاء الحقيقة من مصادرها الرسمية، ألا وهو البحث في سجلات مكتب "الزواج من أجانب".

ولمنع لفت انتباه رجال الموساد في النمسا إلى ما يبحثون عنه، تمَّتْ عملية البحث تحت ستارٍ كثيفٍ من السرية والتكتم، وبواسطة خطابٍ مزوَّرٍ صادرٍ عن السفارة الأردنية في فيينا يخاطب إدارة مكتب الزواج، أمكن الوصول إلى عنوان شقتها، وإلى حقيقة زواجها المحرم.

وفي الحال، طار أحد الضباط إلى بيروت حاملًا صورة رسمية من عقد الزواج، وأجندة متوسطة الحجم عثروا عليها داخل شقتها سجلت فيها "أمينة" مذكراتها وتفاصيل عملها في بيروت قبل رحلتها التدريبية الأولى إلى إسرائيل، لتُحاطَ الخائنة بأدلة خيانتها، الأمر الذي جعل



اعترافها على نفسها وعلى شبكتها مجرد مسألة وقت، وبذلك يكون الأمير الأحمر -بمعاونة ضباط المخابرات الفلسطينية- قد نجح في التخلص من إحدى أشهر وأخطر عميلات الموساد في الشرق الأوسط.

(13)

عملية كمال عدوان

ومرَّت الأيام تلو الأيام، والشهور تتبعها الشهور، ليحل علينا عام 1977م محملًا بجملة من الأحداث الكارثية التي حلَّتْ على منظمة التحرير الفلسطينية، وكان باكورة هذه الأحداث التحرك المنفرد نحو السلام مع إسرائيل، الذي قام به رئيس جمهورية مصر العربية في ذلك الوقت "محمد أنور السادات" دون استشارة شركائه في نصر حرب أكتوبر من الدول العربية، الذين لولا تحركهم واتحادهم لحدث تغير جذري في معادلة الحرب.

وفي الوقت نفسه، تولى "مناحم بيجن" رئيس حزب الليكود وأحد مرتكبي مجزرة دير ياسين رئاسة وزراء دولة

الاحتلال، وأعلن مستشار الأمن القومي للبيت الأبيض في حينه تصريحه الشهير "وداعًا منظمة التحرير". ومما زاد الطين بلة، تعنت الاتحاد السوفييتي في إمداد المنظمة بأي أسلحة جديدة.

أصيب الجميع فيما فعلته الحكومة المصرية بصدمةٍ قاتلةٍ من المحيط إلى الخليج، حكوماتٍ وشعوبًا، بمن فيهم أهل مصر أنفسهم. ولم يصدق أحد من رجال منظمة التحرير الفلسطينية خاصة والأمة العربية والإسلامية عامة، كيف فعل أحد شركاء الدم والمصير ذلك ووضع يديه في يد العدو الأبدي للأمة العربية والإسلامية، ولا كيف قَبِل أن يتعامل مع "مناحم بيجن" الذي قالها صريحة في مذكراته: "إن الأسلحة العبرية هي التي سوف تقرر حدود الدولة العبرية، ولا يمكن أن

نشتري السلام من أعدائنا بالمفاوضات، فهناك نوع واحد من السلام يمكن أن يُشترى، هو سلام القبور".

ولكن لا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب، فقد خان من خان.

فماذا علينا أن نفعل الآن؟

كان هذا لسان حال رجال منظمة التحرير الفلسطينية من أكبر قائد حتى أصغر فرد منتسب إليها. والحقيقة أن الأمر لم يطل، ففي اجتماعٍ طارئٍ لقيادات المنظمة لمناقشة هذه الأزمة، جلست قيادات منظمة التحرير معًا في قاعةٍ مغلَقَةٍ ليبدأ الرئيس "ياسر عرفات" الحديث قائلًا: دون أي مقدمات تطيل الاجتماع، ما هي اقتراحاتكم لمواجهة هذه الأزمة؟

وبينما كان الجميع يعصر عقله لإيجاد حل ينقذهم من هذ الأزمة، تحدث "خليل الوزير" إلى "أبو جهاد" قائلًا:

لديَّ حل، يُعتبر مجنونًا قليلًا، إلا أنه سيكون كالحجر الذي سنضرب به أكثر من عصفور في آنٍ واحدٍ، وقد حضَّرته خصيصًا من أجل هذا الاجتماع.

في تلك اللحظة، التفت الجميع إليه للانتباه إلى ما سوف يقوله، في حين استطرد "أبو جهاد" في الحديث قائلًا:

جميعنا نعلم بالتأكيد الظروف التي نمرُّ بها من موقف الحكومة المصرية، وتلكؤ الاتحاد السوفييتي في إمدادِنا بالسلاح، وأن الرئيس ياسر عرفات سوف يسافر قريبًا إلى الاتحاد السوفييتي لمحاولة الإتيان بسلاحٍ جديد، إذ إن أحدث ما لدينا من أسلحة كان يستخدم في الحرب العالمية الثانية. فما رأيكم -بينما يعتقد الجميع أن

منظمة التحرير قد ماتت- في أن ننفذ مهمة انتحارية يقوم بها عددٌ من الشباب في قلب فلسطين المحتلة، بهدف تحرير عددٍ من الأسرى والمعتقلين من سجون الاحتلال، ويتم اتخاذ مسار البحر لهذه المجموعة، إذ إن هذا المسار هو أكثر مسار آمن لا يتوقعه العدو، وأن يتم تنفيذ هذه العملية في خلال وجود الرئيس ياسر عرفات في الاتحاد السوفييتي، لتوصيل رسالةٍ إليهم بأنَّ شبابنا وهم مسلحون بأسلحةٍ كانت تُستخدم في أثناء الحرب العالمية الثانية، قادرون على صنع معجزات عسكرية لا يستطيع أبطالكم الأشاوس تحقيقها وهم مسلحون بأحدث الأسلحة في العالم؟

"ياسر عرفات" مقاطعًا: اقتراح ممتاز، وماذا تقترح إذًا لتسمية هذه العملية وهذه المجموعة؟

"أبو جهاد" مبتسمًا: الحقيقة لم يسعفني الوقت لإيجاد اسمٍ للعملية أو المجموعة.

أحد القادة يردُّ قائلًا: أعتقد أنَّ في هذه العملية شبه محاكاة لعملية فردان، ولهذا أقترح أن يكون اسم العملية هو (عملية كمال عدوان) رحمة الله عليه، أحد القادة الذين تم اغتيالهم في تلك العملية. أما اسم المجموعة فأقترح أن يكون (مجموعة ديرياسين)، ما دام رئيس وزراء دولة الاحتلال الحالي هو أحد مرتكبي هذه المجزرة الشنيعة.

"ياسر عرفات": و أنا أو افق على هذا الاقتراح، هل لدى أحدكم اعتراض؟

الجميع يصمت تعبيرًا عن مو افقتهم.

"ياسر عرفات" مقاطعًا صمتهم: إذًا فلنتوكل على الله في تنفيذ هذه العملية.

ثم أكمل حديثه مشيرًا إلى "علي حسن سلامة" قائلًا:

وأوكل لك مهمة اختيار أفراد المجموعة، وإعداد قائمة الأسرى والمعتقلين المُستهدَف تحريرهم، وكذا أفضل مكان لتنفيذ العملية.

عندها أومأ "علي حسن سلامة" برأسه إشارةً لموافقته.

وبينما بدأ الجميع بالخروج من القاعة واحدًا تلو الآخر، كُلٌّ لاستكمال أعماله، توجَّه الأمير نحو مكتبه، الذي بمجرد دخوله إياه، أمر بإحضار ملفات فرق الفدائيين لتصفح أوراقهم، واختيار الأنسب من بينهم.

مرت الدقائق تلو الدقائق، في حالةٍ اختلط فيها المللُ بالتفكير في الأعمال، استمرت إلى عدة ساعات، ظل الأمير الأحمر فيها منتظرًا قدوم الملفات الخاصة بالفرق. وبعد مرور أربع ساعات كاملة، دخل عليه أخيرًا خمسة عاملين بجهاز المخابرات، يحمل كلٌّ منهم عشرة ملفات لعشر فرق، بإجمالي خمسين فريقًا كان على الأمير الأحمر الاختيار من بينهم في أسرع وقت.

وبعد استغراقه ساعات طوال ظل خلالها يتصفح بيانات كل فريق، وقع بين يديه ملف الفريق العاشر. كان الفريق يضم أحد عشر شابًّا، تراوحت أعمارهم بين الخامسة عشرة والأربعة والعشرين عامًا، وتقودهم فتاة تُدعى "دلال المغربي"، تبلغ من العمر عشرين عامًا.

ولسببٍ ما، لم يدرك "علي" ماهيته، شعر بأن هذا الفريق

هو الفريق الأنسب لتلك المهمة دون غيره، على الرغم من صغر أعمار بعض أفراده. فانطلق فورًا حاملًا ملف الفريق نحو مكتب "خليل الوزير"، الذي ما إن دخل إليه حتى أطلَّ عليه برأسه مبتسمًا قائلًا: لقد وجدت لك ضالتك.

"أبو جهاد" متعجبًا: ماذا؟! بهذه السرعة تمكنت من تحديد الفريق وكذا تحديد قائمة الأسرى! لقد توقعت أن تأخذ وقتًا أطول من ذلك.

الأمير الأحمر مبتسمًا: لا حسبك، فقد اتفقنا على ترشيح الفريق وليس تحديده، فهذه مهمتك، وهذا هو ملفُّ أولى الفِرَق المرشَّحة للعملية، أما بالنسبة إلى تحديد قائمة

الأسرى، فلا تشغل بالك، ففيما تنتهي من عرض الأمر على الفريق، سوف تكون القائمة جاهزة لديك.

وبعد أن تصفح "أبو جهاد" الملفَّ بصورة سريعة، نظر إلى الأمير الأحمر وعلامات التعجب والاستغراب قد علت وجهه قائلًا: ولكن ألا تعتقد أنهم صغار قليلًا على هذه المهمة؟

الأمير الأحمر: هم صحيح صغار قليلًا في السن، لكنهم لا يقلُّون شأنًا عن الكبار في شيء، على مستوى المهارات القتالية، ثم يا "أبو جهاد" هل نسيت الصحابي "أسامة بن زيد"؟ لقد تولى قيادة جيش الصحابة وعمره سبعة عشر عامًا فحسب، أي في مثل أعمارهم، ثم يا "أبو جهاد" البركة في الشباب.



"أبو جهاد" مبتسمًا: غلبتَني يا "علي" كعادتك.

الأمير الأحمر مستكملًا: سأتركك الآن لاستكمال بقية أعمالي.

وبينما كان "سلامة" عائدًا إلى مكتبه، أرسل "أبو جهاد" في طلب أعضاء الفريق العاشر.

وبعد عدة ساعات، تم إبلاغ الفريق بكامل تشكيله بسرعة الحضور إلى مقر القيادة، وعلى الفور توجه الجميع ودخلوا إلى مكتب "أبو جهاد".

وبعدما تبادلوا التحية، بدأ "أبو جهاد" الحديث قائلًا: لن أطيلَ عليكم في إخباركم بسبب طلبكم، لقد تم ترشيحكم للقيام بمهمةٍ استشهادية، و إني أعطيكم فرصة التفكير و اتخاذ القرار بخصوص هذه المهمة، وأريد أن أعلِمَكم

أيضًا أنه مهما كان قرارُكم فلن تسقطوا من نظري أو من نظر...

وما كاد يكمل كلماته، حتى قاطعته "دلال المغربي" قائلة: عذرًا يا "أبو جهاد"، ولكن من قال لك أننا قد نرفض مثل هذه النوعية من المهمات؟ لقد انضممنا جميعًا إلى منظمة التحرير بكامل إرادتنا دون أي إجبار أو ضغط من أحد، ونحن مدركون تمامًا أننا قد نواجه الموت في أي لحظة، بل وفخورون بذلك، بأننا قد نذرنا حياتنا ودمائنا لإعلاء كلمة وطننا الحر الأبي فلسطين بصفة خاصة ووطننا العربي بصفة عامة، ثم بعد كل هذا تأتي حضرتك بكل بساطة وتحرمنا من هذا الشرف! لا أعتقد أن أحدًا منا سيوافق بذلك، أليس كذلك يا شباب؟ هل يرفض أحدكُم هذه المهمة؟

الجميع: بالتأكيد لا، مو افقون جميعنا.

كادت الغرفة أن تشتعل من شدة الحماسة والشجاعة التي أبداها الجميع، لينظر إليهم "أبو جهاد" بكل فخر قائلًا: لو أخبرتكم بمدى سعادتي بكم فلن تسعفني الكلمات في ذلك، لكن كل ما أستطيع قوله لكم، أنه لن تضيع أمتنا ما دام بها شباب أنقياء مثلكم.

ثم استكمل حديثَه قائلًا: وإذ إنكم و افقتم على هذه المهمة، فأنتم بالتأكيد تعرفون البروتوكول المُتَّبع في مثل هذه النوعية من العمليات، ولهذا أريد أن تكون وصاياكم جاهزة أمامي في مدةٍ أقصاها اثنتان وسبعون ساعة، وبعدها ستبدؤون في التدريبات الخاصة بالعملية.



خرج الجميع من مكتب "أبو جهاد" والابتسامة تعلو وجوههم.

وبينما بدأ البعض بالتفكير فيما سوف يكتبونه في الوصية، قال "وائل" البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا، الذي على الرغم من صغر سنه، كان يعتبر هو بحق روح الفريق، وذلك بسبب ابتسامته الدائمة التي لا تفارقه أبدًا وقدرته العجيبة على تخفيف هموم المجموعة وإخراجها مما تتعرض له من ضغوط: ما رأيكم في أن نذهب إلى قاعة الطعام لنتناول الغداء، وبعدها نتناقش بشأن موضوع الوصية، لأن لديَّ فكرة بشأنها.

"دلال" والابتسامة تعلو وجهها: وما هي يا عبقري زمانك؟



"وائل": ننهي طعامنا أولًا ثم نتحدث، ثم هيا بنا سريعًا لأن عصافير بطني تزقزق، بل تعدت مرحلة الزقزقة وأصحبت تنهق.

فانفجر الجميع ضحكًا، لينطلقوا نحو قاعة الطعام.

وللوصول إلى قاعة الطعام، وقف أعضاء الفريق ضمن صفٍّ طويلٍ مؤدٍّ إلى قاعة الطعام الواقعة تحت الأرض، وببطء شديد بدأ الصف في التحرك للأمام، إلى أن وصلوا في النهاية إلى قلب قاعة الطعام. كانت القاعة ذات سقف منخفض ومكتظة بالعاملين والمنتسبين إلى منظمة التحرير والضجيج فيها يصم الآذان، وكالعادة سأل "وائل" سؤاله اليومي: ما هو الطعام اليوم؟



فأجابه الجميع في صوتٍ واحد: كالعادة، الثلاثاء مقلوبة

بالبطاطا والجزر والفول الأخضر.

فضحك الجميع من الموقف، ثم استمروا في سيرهم إلى

أن وصلوا إلى عامل المطعم الذي وضع لكلٍّ منهم وجبته

المقررة، وبعد أن انتهى منهم صاح كعادته وبيده المغرفة

قائلًا: التالي من فضلكم.

ليتقدم إليه من يليهم في الدور.

وفي إحدى الطاولات، جلس الجميع لتناول وجباتهم،

وبمجرد إنهاء "أبو هزاع" وجبته، سأل "وائل" الذي لم

يكن قد أنهى وجبته بعد قائلًا: ها يا وائل، أتحِفْنا

بأفكارك الرائعة.



"وائل" وفي فمه بعض الطعام: شوانٍ أنتهي مما في فميش وأحدشك حالًا.

نظر إليه "أبو هزاع" بتعجُّبٍ لثوانٍ مما قال، ثم انفجر هو والجميع ضحكًا، في حين نظر إليهم "وائل" مستغربًا للحظات، فهو لا يعرف على ماذا يضحكون، لكن سرعان ما أدرك الأمر، إذ إنه لوجود طعامٍ في فمه، لم يستطع إخراج الألفاظ بصورة صحيحة، فضحك معهم هو الآخر.

وبعد أن أفاق الجميع من الضحك، سأله "أسامة" أصغر أعضاء الفريق والبالغ من العمر خمسة عشر عامًا: إذًا ماذا لديك من مقترحات بخصوص الوصية؟



"وائل": أعتقد أن "أبو جهاد" يحضر لنا هذه المرة عملية عظيمة، وإلا ما كان خيَّرنا بين تنفيذها وعدم التنفيذ، ولذا فما رأيكم في أن نكتب وصية مجمعة لكامل أعضاء الفريق بخط اليد ونسجلها صوتيًا؛ إرثًا لمن بعدنا.

أُعجِب الجميع بالفكرة التي قالها "وائل". فتحدث "أبو الرمز" قائلًا: أنا موافق على هذا الاقتراح، فما رأيكم في أن نعرضه للتصويت؟

بدأ الجميع في التصويت لصالح هذا الاقتراح واحدًا تلو الآخر، وما إن تأكد إجماع الجميع على الفكرة، حتى أكمل "أبو الرمز" حديثه قائلًا: إذًا فلنبدأ في الكتابة:

"بسم الله الرحمن الرحيم...".

وبمجرد انتهائهم من كتابة الوصية، توجه "أبو هزاع" والفرحة تملأ وجهه نحو مكتب "أبو جهاد" حاملًا الوصية في ظرف مكتوب عليه: "لا يفتح هذا الظرف إلا بعد انقضاء أجل أصحابه".

وفي الخامس من مارس عام 1978 م، وبينما كانت المجموعة منهمكة في التدريبات المختلفة استعدادًا للعملية، أرسل "أبو جهاد" في طلب القائد "محمد زيدان أبو قاسم" الشهير ب"خضر"، وذلك لشرح دوره في تنفيذ خطة دعم مجموعة ديرياسين. وما إن ذهب إليه وطرق الباب حتى أذن له "أبو جهاد" بالدخول، فحدثه قائلًا بعد التحية: بلغني أن سيادتك قد أرسلت في طلبي، أرجو أن يكون خيرًا بإذن الله.

"أبو جهاد": خيرٌ بإذن الله، تستعد المنظمة لإعداد عملية استشهادية وسوف نحتاجك لدعم فريق التنفيذ، نظرًا إلى خبرتك في ركوب البحر، فهل توافق على ذلك؟

"خضر" وقد غطت وجهَه علاماتُ التعجب المخلوطة بالفرحة: أتخيرني يا "أبو جهاد"؟ إنني يا "أبو جهاد" قد ارتبطت بمحبوبتي فلسطين، وأي عاشق لا بد أن يهدي إلى محبوبته كل غالٍ ونفيس ليعبر لها عن حبه، و أنا أهديتها حياتي وما أجريه من عمليات، آملًا في أن تكون ذات قيمة لها. والحقيقة، إن آخر هدية لها كانت منذ مدة ليست بالقصيرة، ولا أريدها أن تنتظر أكثر من ذلك.

"أبو جهاد" مبتسمًا لتعبير القائد "خضر" عن مدى حبه وطنه: وبإذن الله لن يطول الانتظار، وقريبًا جدًّا -بإذن الله- سوف أخبرك بالتفاصيل.

وبالفعل لم تطل المدة كثيرًا، ففي التاسع من مارس، أمر "أبو جهاد" المجموعة بالراحة استعدادًا ليوم الانطلاق، في حين أخبر القائد "خضر" بانتظاره بالقرب من الميناء صباحًا.

وفي الصباح التقى به وبالمجموعة وبدأ بالمجموعة، وشرح لهم هدف العملية، وهو الذهاب إلى قلب فلسطين المحتلة عن طريق البحر للاستيلاء على مبنى عسكري واحتجاز من بداخله رهائنَ ومبادلة قائمة من الأسرى داخل سجون الاحتلال بهم، وإذا لم يتيسر لهم الوصول

إلى المبنى لأي سبب من الأسباب، يستولون على أيّ هدفٍ حسب ما يتراءى لقائد المجموعة.

ثم التفت إلى "خضر" محدثًا إياه عن دوره في العملية الذي تلخَّص في أن يُغطي على تحركات السفينة الأم، التي سوف تنقل المجموعة المكلفة بالتنفيذ إلى أقرب نقطة من الأراضي المحتلة، بواسطة السفينة الطعم التي سوف يقودها بنفسه.

وما إن أنهى "أبو جهاد" حديثه حتى تجهز القائد "خضر" لركوب سفينته الطعم التي تحرك بها كما خطط له تمامًا. ولضمان نجاح الخطة، كانت الاتصالات بين "خضر" و"أبو جهاد" تتم على الهواء مباشرة بقصد الالتقاط ومطاردة السفينة. وقد استمر الأمر على تلك

الحال حتى اكتشفت البحرية الإسرائيلية السفينة الطُّعم لتطاردها وهي عائدة إلى شاطئ لبنان الجنوبي. وبمجرد أن تأكد السيد "خليل الوزير" من أن السفن الإسرائيلية قد ابتلعت الطعم المُعَد لها، أصدر الأمر إلى القائد "خضر" من خلال خط سري تم إعداده خصيصًا لتلك العملية بسرعة التوجه إلى جزيرة قبرص. وفعلًا أخذت السفينة في الابتعاد عن شاطئ لبنان والزوارق الإسرائيلية تلاحقها، في حين كان "أبو جهاد" ومن معه يراقبون المشهد إلى أن اختفت عن الأنظار.

ليأتي بذلك الدور على السفينة الأم الحاملة لمجموعة دير ياسين، التي ما إن صدر إليها الأمر بالتحرك حتى انطلقت بأقصى سرعة ممكنة لها نحو هدفها، في حين كان بداخلها أعضاء المجموعة يردِّدون أناشيد الثورة

الفلسطينية، ويدعون لرفيقهم "خضر" بأن يرعاه الله ويوفقه في رحلته التي كانوا يتابعونها قبل انطلاقه.

وبمجرد وصول السفينة إلى منطقة الإنزال، تم تجهيز قاربَين من طراززوردياك، ومن ثم أُصدرت التعليمات إلى أعضاء المجموعة بالسيرعلى درجة تسعين، وألا يحيدوا عنها يمينًا أو يسارًا، لينطلق بعدها أفراد المجموعة الاثنا عشر مدعومين بإيمانهم بربهم وصدق قضيتهم وبعض الأسلحة الخفيفة. وما إن بدؤوا في التحرك حتى أخذوا يتراهنون من فيهم يرى أرض فلسطين أولًا، لكن مرت ساعة تلو الأخرى ولم يرَ أحد منهم شيئًا، فقالوا ربما يكون قائد السفينة الأم قد أنزلهم بعيدًا عن النقطة المتفق عليها، إذ كان لزامًا عليه أن ينزلهم بعيدًا عن الشاطئ بما لا يزيد على مئة وعشرة كيلومترات، فقالوا:

لم لا نزيد ساعتين أو ثلاثة آخرين؟ ولكن لا نتيجة، فلا أثر للشاطئ. ثم تشاوروا بخصوص ما يجب فعله، فحاولت "دلال المغربي" الاتصال بالسفينة الأم من خلال اللاسلكي قائلة: من رامي إلى الأم، من رامي إلى الأم... من رامي إلى الأم، من رامي إلى الأم.

ولكن لا مجيب، فقالوا: ما العمل؟

أجاب أحدهم: نستمر كما نحن، فلا حل آخر لدينا.

واستمروا في مسيرتهم، ولما أقبل الليل عليهم وغلبهم النعاس، ربطوا الزورقين بعضهما ببعض حتى لا يفترقا عن بعضهما في البحر، وقسموا بعضهم في دوريات للحراسة، فنام من نام وسهر من سهر.



ومع بزوغ الفجر، توقفت محركات الزودياك، إذ نفد ما بها من وقود، فأيقظ القائمون بالحراسة بقية المجموعة للتجديف كي لا ينحرفوا عن المسار. وكان من الطبيعي بعد كل ما مروا به طول هذه المدة في البحر أن يتسلل اليأس والإحباط إلى قلوب بعضهم، إلا أنه ما إن رآهم "وائل" على تلك الحالة حتى بدأ يُنشِد أغنية "أنا صامد". تلك الأغنية التي انطلقت إبان أحداث أيلول الأسود، ليقوم بقية أفراد المجموعة واحدًا تلو الآخر في ترديدها معه، وكان لها مفعول السحر في رفع الروح المعنوية والإصرار لديهم إلى أقصى درجاته. وبمجرد انتهائهم من الأغنية، رأى "أسامة" (أصغر أعضاء المجموعة اليابسة من بعيد فصرخ مهللًا: يا شباب، إني أرى فلسطين... إني أرى فلسطين.

إلا أنه ما كاد الشباب يفرحون برؤيتهم أرض فلسطين التي عاشوا طول عمرهم غُرباء عنها، حتى غافلتهم عدة موجات ضخمة أطاحت بأحد الزورقين الزودياك، في حين تشبث الآخرون بالزورق قدر الإمكان.

(14)

جمهورية دلال

هدأت غضبة المياه المالحة المفاجئة، ليكتشف الناجون من المجموعة استشهاد اثنين منهم، ألا وهم "خالد عبد الفتاح يوسف" (عبد السلام) و"عبد الرؤوف عبد السلام علي" (أبو أحمد) مسئول الترجمة بالفريق، إذ اصطدمت رؤوسهم بالصخور المتراكمة في المياه عندما انقلب الزورق بهم، في حين كان "وائل" في حالة غيبوبةٍ كاملة. وقبل أن تنجرف أجساد رفاقهم في المياه بلا رجعة، وضعهم رفاقهم على ظهر الزورق وسبحوا بهم حتى الشاطئ، وقد ساعدهم في ذلك زملاؤهم في الزورق الآخر، الذين باتوا يجدفون بأقصى ما لديهم من قوة، فيما تنهال

من أعينهم الدموع كالأنهار حزنًا على فقدان رفاق دربهم وأصدقاء عمرهم.

إلا أنه ما إن وصل الجميع إلى البر في منطقة غير مأهولة، حتى بدأ الجميع في لملمة جراحهم وأحزانهم، فلا وقت للبكاء في ميدان المعركة.

لذا بدأ أحدهم في حساب الخسائر في العدد والمؤن، في حين أخذ آخر يستكشف موقعهم و أين هم تحديدًا، وهل هم حقًّا على أرض فلسطين أم لا، في حين عمل ثالث على إفاقة "و ائل" من غيبوبته. أما عن بقية عناصر المجموعة، فقد توزعوا ما بين حراسة المكان ومساعدة الثلاثة الآخرين في مهامهم.

وقد تولى عملية الاستكشاف كلٌّ من "أبو الرمز" و"حسين فياض" لإجادتهما المطلقة للإنجليزية، وكي لا يواجها أي مشاكل محتملة في خلال عملية استكشافهما المكان، بدَّلَا بملابس الميدان الخاصة بهما ملابسَ مدنية، تجولا بها بكل حرية في المناطق المحيطة إلى أن وصلا في النهاية إلى الشارعِ الرئيسي؛ محاولين إيجاد أي أحد يحصلان منه على أي معلومات تساعدهما بصفتهما تائهَين.

ولحسن حظهما التقيا بسائحة أمريكية كانت تلتقط بعض الصور التذكارية لها بالمنطقة، فتوجه "حسين" إليها لسؤالها عن المنطقة قائلًا: لو سمحتِ، نحن تائهان في هذه المنطقة، هلَّا أخبرتِنا أين نحن تحديدًا؟

السائحة: بكل سرور، أنتما في الطريق السريع الواصل

بين حيفا وتل أبيب.

"حسين": وكم نبعد عن تل أبيب؟

السائحة: تسعين كيلومترًا.

"حسين": وما هو اسم المنطقة؟

السائحة: معجال ميخائيل وهي شبه عسكرية.

"حسين": شكرًا جزيلًا.

وبمجرد إنهائه المحادثة مع السائحة، توجه بكل هدوء إلى "أبو الرمز" لإخباره بكل ما عرفه من السائحة، ومن ثم تجولا بعيدًا عنها، ثم عادا أدراجهما إلى بقية أفراد المجموعة لإخبارهم بما توصلا إليه. لكن عند عودتهما، اكتشفا أن "وائل" لم يفِق من غيبوبته بعد. وقتها نظر

الجميع بعضهم إلى بعض متسائلين ما العمل، فبصفتهم عسكريين هُم مدربون على أنه في حال تعرض أحد زملائهم لإصابة شديدة يصعُب علاجها، يجب التخلص منه في الحال من خلال قتله، كي لا يمثل خطرًا على المهمة ككل.

لتمر اللحظات كالدهر في صمتٍ قاتل، وجميعهم ينظرون بعضهم إلى بعض، فلا أحد منهم يستطيع أن يطلق الرصاص على زميله، فهذا ليس مجرد زميل درب فحسب، إنه "وائل" الذي دائمًا ما كان يسعى إلى تخفيف أي أعباء أو هموم عنهم، إلا أن تلك اللحظات القاتلة لم تدُم طويلًا إذ قطعها صوت "أسامة" والمرارة قد ملأته وغشت على كلماته في حين كانت دموعه تنهمر من فرط حزنه وغضبه: لعن الله هؤلاء الصهاينة الأنجاس!



يسرقون أرضنا ويقتلون أهلنا ويغتصبون نساءنا، وفي النهاية يجبروننا على قتل أعز أصدقائنا.

إلا أن "فاخر النحال" وضع يده على كتف أسامة قائلًا: لا يا أسامة، لن يطلق أحد منا الرصاص على أخيه مهما كانت الأسباب، فلن يُطلَق رصاصُنا إلا على أعدائنا، أما عن وائل فسوف أحمله على ظهري حتى يفيق.

فردت عليه "دلال": يا فاخر دون عواطف، لكن هل أنت مدرك لقرارك؟

"فاخر النحال": بالتأكيد يا دلال، مُدرِك له تمام الإدراك.

"دلال": إذًا سوف نعيد توزيعنا، بواقع اثنين يؤمّنان "فاخر" و"وائل"، وثلاثة يأسرون إحدى المركبات، والبقية يؤمِّنون مجموعة الهجوم والاقتحام.

في تلك الأثناء، كان "ياسر عرفات" منتظرًا أخبار مجموعة ديرياسين بفارغ الصبر. وفي الوقت نفسه، لكن على أرض فلسطين المحتلة، بدأت مجموعة ديرياسين بالتحرك نحو هدفها، وتم تعيين "أبو الرمز" و"حسين فياض" و"خالد أبو إصبع" في مجموعة الهجوم لارتدائهم ملابس مدنية. وبدؤوا في الإشارة إلى بعض السيارات لمدة ساعتين كي تتوقف، لكن ما من مجيب إلى أن نفد صبر "أبو الرمز"، فسحب الكلاشينكوف الخاص به، وأطلق عدة زخات من الرصاص على إحدى الحافلات القادمة من تل أبيب نحو حيفا أوقفتها في الحال، ليدخل أفراد الهجوم إلى الحافلة، في حين أوقف أفراد التأمين الطريقَ من الجانبين كي يتمكن "فاخر النحال" من الانطلاق بسهولة حاملًا "وائل" على كتفيه.

كانت الصدمة والصمت مُخيِّمَين على وجوه الرهائن، إذ لم يخطر ببالهم رؤية فدائيين على أرض فلسطين، لكن قطعت "دلال" ذلك الصمت إذ خاطبتهم قائلة: نحن لا نريد قتلكم، نحن نحتجزكم فقط كرهائن لنخلص إخواننا المعتقلين في سجون دولتكم المزعومة من براثن الأسر.

ومن ثم أردفت بصوتٍ خطابي: نحن شعب يُطالِب بحقه بوطنه الذي سرقتموه، ما الذي جاء بكم إلى أرضنا؟

وحين رأت "دلال" ملامح الاستغراب في وجوه الرهائن سألتهم: هل تفهمون لغتي أم إنكم غرباء عن اللغة والوطن؟!

هنا ظهر صوت يرتجف من بين الرهائن لفتاة يهودية من اليمن تعرف العربية، فطلبت "دلال" من الفتاة أن تترجم ما تقوله إلى الرهائن، ثم أردفت "دلال" مستكملة خطابها بنبرات يعلوها القهر: لتعلموا جميعًا أن أرض فلسطين عربية، وستظل كذلك مهما علت أصواتكم وبنيانكم على أرضها.

ثم أخرجت "دلال" من حقيبتها علم فلسطين، وقبلته بكل خشوع، ثم علقته داخل الحافلة، وألقت له التحية العسكرية. وبهذا رُفِع العلم الفلسطيني على أرض فلسطين لأول مرة منذ نكبة 1948 م.

عند هذه المرحلة، اكتشفت القوات الإسرائيلية العملية، وأصيبت حكومة الاحتلال بحالة من الذهول،



وكان لسان حالهم يقول: كيف تجرأت بضع حشرات فلسطينية على أن تسير على أرض بني إسرائيل الموعودة؟ ولذا، كان القرار أنه لا بد من منعهم من دخول تل أبيب مهما كان الثمن حتى ولو كلفهم ذلك قتل الأسرى جميعهم. لذلك جندت الحكومة الإسرائيلية قطعًا كبيرة من الجيش وحرس الحدود لمواجهة الفدائيين، وسَعَت إلى وضع الحواجز في الطرق جميعها المؤدية إلى تل أبيب، لكن الفدائيين تمكنوا من تجاوز الحاجز الأول، ومواجهة عربة من الجنود وقتلهم جميعًا، الأمر الذي دفع بقوات الاحتلال إلى تكثيف مزيد من الحواجز حول الطرق المؤدية إلى تل أبيب، غير أن الفدائيين استطاعوا تجاوزَ حاجزٍ ثانٍ وثالثٍ حتى أطلُّوا على مشارف تل أبيب، فارتفعت روحهم المعنوية أملًا في تحقيق الهدف، أما عن

"وائل" الذي كان مُغمًى عليه، إذا به يُفيق من غيبوبته كما لو كان قد استيقظ من نومه، ليمسك بالكلاشينكوف الخاص به، ويغني أغنية "طل سلاحي من جراحي".

في هذه الأثناء، بدأت وسائل الإعلام العالمية قبل المحلية تتابع هذا الحدث الجريء، وبات العالم أجمع من أقصاه إلى أدناه حابسًا أنفاسه ومتابعًا لحظة بلحظة مستجدات الأوضاع. ووصلت إلى الرئيس "ياسر عرفات" أخبار ما فعله أفراد مجموعة دير ياسين على أرض فلسطين، وكان حينها على وشك مغادرة الاتحاد السوفييتي متوجهًا إلى ألمانيا، فالتفت نحو المسئولين السوفييت الذين كانوا هم الآخرون يتابعون بكل شغف ما فعله شباب المجموعة، وقال والابتسامة تملأ وجهه ثقةً في ربه و أبنائه: سوف

أذهب الآن إلى زيارة ألمانيا لأترككم تتابعون ماذا يفعل أبناؤنا على أرضنا المحتلة مدعومين بإيمانهم بربهم وبعض الأسلحة التي كنتم تستخدمونها في خلال الحرب العالمية الثانية، وتخيلوا ماذا يستطيع إخوانهم أن يفعلوا إذا ما وصلت إليهم بعض الأسلحة الحديثة.

ثم أكمل طريقه متجهًا نحو المطار للسفر إلى ألمانيا.

في الوقت نفسه، لكن على أرض فلسطين، أصبح الشباب على بُعد بضعة أمتار عن تل أبيب، وبلغت الروح المعنوية للشباب عَنان السماء، وصاروا يغنون مع "وائل" الأناشيد الوطنية، ولهذا كان لا بد للحكومة الإسرائيلية من سرعة التصرف، فتم توكيل المهمة إلى الضابط "إيهود باراك"، سفَّاح عملية فردان. ولضمان نجاحه، تم



تدعيمه بأربع طائرات هليكوبتر وأربع كتائب مشاة وسرية

مدفعية وسرية مدرعات.

وقد تمركزت هذه القوات عند نادٍ ريفيٍّ على الطريق

الواصل بين حيفا وتل أبيب يُدعى (Country Club)،

وصدرت لهم الأوامر بألا تتقدم الحافلة خطوة واحدة عن

هذا النادي حتى ولو كلف ذلك قتل كل من فيها من

رهائن. وبمجرد اقتراب الحافلة من النادي، أطلق "إيهود

باراك" زخَّاتٍ من الرصاص على كابينة السائق وقتله عن

عمد، ما جعل الحافلة تتوقف عن الحركة تمامًا على بُعد

ثلاث مئة متر عن القوات الإسرائيلية.

حاولت المجموعة الفدائية مخاطبة الجيش بهدف

التفاوض وأملًا في ألا يصاب أحد آخر من الرهائن بأذًى،

لكن جيش الاحتلال رفض أن يصغي إلى صوت الفتاة اليهودية اليمنية التي حاولت محادثتهم من نافذة الحافلة، بل أعلنوا عبر مكبرات الصوت أنه لا تفاوض مع جماعة (المُخرّبِين) وأن عليهم الاستسلام فقط.

لذا وكرد فعل طبيعي، أصدرت "دلال" الأمر بتقسيم المجموعة إلى فريقين، الفريق الأول يظل مع الرهائن لتأمينهم وكذا تغطية نزول الفريق الثاني (المكلف بمواجهة هذه الجحافل العسكرية) من الباص. وقد تضمن الفريق الأول كلًّا من (أبو هزاع – أبو حسين– فاخر النحال – وائل – طارق بن زياد).

وبالفعل، نزل بقية أفراد المجموعة تحت غطاء ناري من الفريق الأول، حتى تحصن كل فرد منهم، ليخوض بذلك

أفراد مجموعة ديرياسين حربًا حقيقيةً مع جيش كامل الأركان مسلَّح بأحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا الحربية من آلات فتك ودمار، بشجاعة منقطعة النظير لعدة ساعات متواصلة.

وبعد أن ساد الظلام وطال القتال واستعصى الشباب على جيش الاحتلال على الرغم من عدم توافق العدد أو العُدَّة بين الطرفين، كان لزامًا على القوات الإسرائيلية تقديم المدافع والدبابات لإنهاء الأمر، فأطلقوا عدة قذائف تجاه الشباب والحافلة دون مراعاة حياة الرهائن، الذين من المفترض أنهم رعايا تلك الدولة.

ووسط ذلك الوابل من القذائف، أصابت قذيفةٌ الحافلة، وقُتِل كل من فيها من رهائن، واستشهد الفريق الأول بالكامل.

لا أحد يعلم إن كانت هذه القذيفة عن عمد أم لا، لكن لا فرق، فالنتيجة واحدة. وقتها أصدر "باراك" أمرًا بوقف إطلاق القذائف، وعودة قوات المشاة للتعامل مع المخربين -كما أسماهم- بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة. في الوقت نفسه، كانت الذخيرة التي بحوزة الشباب قد أوشكت على الانتهاء، ليدركوا جميعًا أن رحلة عودتهم إلى وطنهم المسلوب قد قاربت على الانتهاء.

وقد تخللت عمليةَ الاشتباك تلك مُدد هدنة متقطعة بهدف مطالبة الشباب بالاستسلام، لكن في كل مرة لم يكن أحد يجيب، وكانت إحدى تلك الهُدَن قد حدثت بعد تفجير الحافلة مباشرة، عندها أجاب "أبو الرمز" برغبته في الاستسلام. صُدِم مَن تبقى من أعضاء المجموعة جميعهم متسائلين: كيف يقبل شخص بمكانة وقدر "أبو

الرمز" أن يعيش أسيرًا في سجون الاحتلال؟ في حين شعر جنود الاحتلال وقياداتهم بالسعادة الغامرة، وكيف لا وقد نجحوا أخيرًا في دفع هؤلاء الشباب إلى الاستسلام؟! فتقدم ما يزيد على عشرة جنود منه لتكبيله و اقتياده إلى الحجز، إلا أنه بمجرد أن بات هؤلاء الجنودُ في مواجهة "أبو الرمز" حتى نهض من وضعية الانحناء للقرفصاء ثم الوقوف، وأطلق ما تبقى لديه من ذخيرة في صدور الجنود القادمين نحوه، واستشهد في حينها.

وقد كان لذلك الفعل أثرَ السحر في صدور الشباب، الذين سارعوا لإطلاق ما تبقى لديهم من زخات الرصاص والقنابل اليدوية تجاه الصهاينة، في هجمة أخيرة علم الجميع أنهم ملاقوربهم بعدها. فبدأ من تبقوا من مجموعة ديرياسين في الاستشهاد واحدًا تلو الآخر، ولم

يتبقَّ منهم أحد على قيد الحياة سوى "حسين فياض" و"خالد أبو إصبع"، إذ أُصيبا بعدة رصاصات منعتهم من الاستمرار في المقاومة.

شعر الصهاينة بعد هذا العناء الشديد بنشوة الانتصار، أو إن صح القول سُعار الانتصار، فانطلقوا يلهثون ويركضون نحو الشباب، وتجمعت كل مجموعة منهم حول كل واحد منهم، وصاروا يركلونهم بكل ما أوتوا من قوة، لا يهم إن كانوا أحياء أم أموات، المهم أن يفرغوا غِلَّهم وحقدهم فيهم، وكان "باراك" من ضمنهم، إذ توجه نحو "حسين فياض"، وسأله بعربية ركيكة: من قائدكم؟

فأشار "حسين فياض" بيديه ناحية "دلال المغربي".



ثم أعاد عليه السؤال مرة أخرى، فصرخ "حسين فياض" في وجهه قائلًا: لقد قلت لك إنها دلال.

وقتها شعر "باراك" بصدمة مُزلزِلة كادت أن تسقطه أرضًا، متسائلًا بينه وبين نفسه: "هل هو يسخر مني أم يستهزئ بي؟ هل حقًّا قائد المجموعة التي أذلَّتنا لمدة تخطت الأربع ساعات امرأة؟!". لم يصدق "باراك" نفسه حتى ذهب إليها بنفسه، وشدَّها من شعرها وجسدها، وجردها من ملابسها بكل همجية دون مراعاة حرمة موتها، ليتأكد بنفسه إن كانت فتاة أم لا.

في الوقت نفسه، كان "خليل الوزير" يتابع ما يحدث في أرض المعركة لحظة بلحظة من خلال أعينه هناك، وكذا من وسائل الإعلام، وبعد أن تأكد من انتهاء العملية



باستشهاد معظم أفراد المجموعة، جلس في مكتبه، وفتح الوصية التي كان مما ورد فيها:

"... وبعد أن انتهينا من وصيتنا لأهلنا، فوصيتنا لكم جميعًا، أيها الإخوة حملة البنادق، تبدأ بتجميد التناقضات الثانوية وتصعيد التناقض الرئيسي ضد العدو الصهيوني، وتوجيه البنادق، كل البنادق نحو العدو الصهيوني، واستقلالية القرار الفلسطيني تحميه بنادق الثوار المستمرة، نقولها لإخوانا أينما وُجِدوا، نوصيكم بالاستمرار في الطريق نفسه الذي سلكناه.

أحباءَنا، لا يهم المقاتل حين يضحِّي أنْ يرى لحظة الانتصار، فاستمِرُّوا في الدرب مهما طال، وصونوا الوصية، واسعَوْا دائمًا و أبدًا نحو تحرير كامل الوطن



المحتل دون مساومة على أي شبر من الأرض العربية، وأن تضربوا العدو الصهيوني حتى تحرير كامل التراب الوطني".

وقد كان لتلك العملية أثرًا عظيمًا في المنطقة ككل، وليس على الأراضي الفلسطينية فحسب، إلى درجة أنه قد كتب عنها كثير من الشعراء والأدباء، ومنهم الشاعر "نزار قباني" في واحدةٍ من مقالاته قال فيها:

"... في باصٍ أقاموا جمهوريتهم، أحد عشر رجلًا بقيادة امرأة اسمها دلال المغربي. تمكنوا من تأسيس فلسطين بعدما رفض العالم أن يعترف لهم بحق تأسيسها... ركبوا حافلةً متجهةً من حيفا إلى تل أبيب، وحولوها إلى عاصمة مؤقتة لدولة فلسطين. رفعوا العلم الأبيض

والأخضر والأحمر والأسود على مقدمة الحافلة، وهزجوا وهتفوا كما يفعل تلاميذ المدارس في الرحلات المدرسية...

ولأول مرة في تاريخ الثورات، يصبح باص من باصات النقل المشترك جمهوريةً مستقلةً كاملةَ السيادة لمدة أربع ساعات. إنه لا يهم أبدًا كم دامت هذه الجمهورية الفلسطينية، المهم أنها تأسست، وكانت أول رئيسة جمهورية لها، اسمها دلال المغربي.

هذه أول مرة تصبح فيها امرأة عندنا رئيسة للجمهورية، فالبطولة لا جنس لها، وليفهم الرجال العرب أنهم لا يحتكرون مجد الحياة ولا مجد الموت، وأن المرأة يمكن أن تعشق أنبل بكثير مما يعشقون، وتموت أروع بكثير مما يموتون. وحين قرَّرَتْ دلال المغربي أن تمارس أمومتها الحقيقية، ذهبت إلى فلسطين مثلما فعلت مريم بنت

عمران، وهناك على الأرض الطيبة التي أنبتت القمح والزيتون والأنبياء، أسندت ظهرها إلى جذع نخلة (فتساقطت عليها رطبًا جنيًّا) فأكلت وشربت وقرَّت عينًا، وحلمت بأن عصافير الجليل الأعلى تحط على كتفيها وتناديها "يا أمي". غير أن الجنود الإسرائيليين أطلقوا النار عليها وهي في لحظات المخاض، و انصرفوا بعدما تصوروا أنها لن تلد. لكن دلال المغربي ولدت أولادًا سيرجعون بعد خمسة عشر عامًا، بعد خمس مئة عام، بعد خمسة آلاف عام ليزوروا قبر أمهم الذي تناثرت عليه أزهار البرتقال.

أحد عشر رجلًا وامرأة كانوا يتمشون كفصيلة من شقائق النعمان على ذاكرة الورد، ماتوا جميعًا، لكن دمهم تحول إلى لغة جديدة، هربوا من اللغة العربية القديمة

واخترعوا لغة خاصة بهم، هربوا من اللغة التي لا تفعل شيئًا، إلى اللغة التي تفعل كل شيء، هربوا من علم الكلام ودلائل الخيرات والمُعلَّقات وكليلة ودمنة وصبح الأعشى ومروج الذهب إلى لغةٍ في طور الولادة، من مفردات الرماد إلى مفردات الجبر.

فاللغة العربية كما يتكلم السياسيون من المحيط إلى الخليج صارت متقاعدة لا تقول شيئًا، ولا تعني شيئًا، ولا تنقل حرارة ولا رطوبة، ولا تتعاطى أي عمل.

أحد عشر رجلًا وامرأة في لحظةٍ من لحظات التجلي والصدق مع النفس قرروا أن يكسروا كل المفردات الجبانة والكسيحة في اللغة العربية، ابتداءً من السين

وسوف إلى ليت ولعل وعسى، وبقية أفراد فرقة حسب

الله.

أحد عشر رجلًا وامرأة قرفوا من مفردات الإسفنج

والبلاستيك في المعجم السياسي العربي، فقرروا أن

يقتحموا القاموس ويقتلوا المفعول به.

أحد عشر رجلًا وامرأة كانوا أكبر منا جميعًا، أكبر من

العرب العاربة والمستعربة، وأكبر من اليمين واليسار،

وأكبر من الأيديولوجيين والمُنظِّرين والفلاسفة والمناضلين

على علب المارلبورو الفارغة، وأكبر من كل المراوغين

والمذبذبين والبهلوانات.

أحد عشر رجلًا وامراة قطعوا شعرة معاوية التي كانت

تخنقنا، وكسروا كل الزجاجات التي كان يخزن بها سيدنا

أيوب حبوب الصبر، ومزقوا كل برقيات التهنئة التي يتبادلها كل الحكام العرب بمناسبة أعياد ميلادهم وزوجاتهم وختان أولادهم وطلوع أسنان حفيداتهم (لما فيه خير الأمة العربية).

اشتاقوا إلى وطنهم، ولم يعطهم أحدٌ مفاتيحَهم، فصنعوا من جراحِهِمْ مفاتيحَ ذهبيةً ودخلوه.

هل رأيتم رأس دلال المغربي وشعرها المتناثر على تراب الوطن؟

هل تعرفون كيف يعود النهر إلى منبعه، والشجرة إلى جذورها، وموسيقى القصيدة إلى القصيدة؟

هل رأيتم ابتسامتها التي تشبه ابتسامة الأطفال عندما يفتحون علب الهدايا؟ الهدية التي تلقتها دلال المغربي، كانت فلسطين، ومن شدة الفرح احتضنتها وماتت.

بعد ألفِ سنة، سيقرأ الأطفال العرب الحكاية التالية...

إنه في اليوم الحادي عشر من شهر آذار 1978 م، أقامت دلال المغربي الجمهورية الفلسطينية ورفعت العلمَ الفلسطيني، ليس المهم كم عمر هذه الجمهورية.

المهم أن العلم الفلسطيني ارتفع في عمق الأرض المحتلة، على طريق طوله خمسة وتسعون كيلومترًا في الخط الرئيسي في فلسطين".

في الوقت نفسه، لكن في مكان آخر من العالم، وبالتحديد إنجلترا، كانت الفتاة الإنجليزية الشابة صاحبة الملامح

الطفولية البريئة والشعر الأسود الحريري القصير والابتسامة المرحة "روث آلوتي"، قد خرجتْ من بيتها حاملةً معها حقيبة سفرها، متجهةً نحو مطار" لندن هيثرو الدولي" للسفر إلى ألمانيا الشرقية، وتحديدًا "فسبادن"، وذلك للدراسة بجامعة فرانكفورت في منحة خاصة بالمتفوقين مدتها خمس سنوات لدراسة الفلسفة.

ولكن من تكون "روث آلوتي" تلك؟ وما عَلاقتها بأحداث قصتنا؟

(15)

روث آلوتى

هي فتاة إنجليزية، ذهبت إلى ألمانيا الشرقية، وتحديدًا "فسبادن" لدراسة الفلسفة بجامعة فرانكفورت في منحة تفوق مدتها خمسة أعوام.

عاشت في شقة مكونة من حجرة نوم وصالة يقتطع المطبخ جزءًا منها، شأنها في ذلك شأن آلاف من الطلاب المغتربين. لكن ما ميزها عن قريناتها في تلك الجامعة هو اهتمامها بالقضية الفلسطينية، وميلها إلى الجانب الفلسطيني، وكذا اهتمامها بقضايا ضحايا الحروب واللاجئين بالعالم الثالث، وبخاصة الأطفال. فما تركت محفلًا أو جلسة سمر أتت فيها الفرصة للحديث عن

القضية الفلسطينية، إلا وخاضت فيها، ودافعت دفاعًا مستميتًا عنها، حتى إنها اشتركت في إحدى الجمعيات الأهلية المهتمة بأحوال الأطفال في العالم الثالث وبخاصة فلسطين، ومن ثم حصلت على عضوية منظمة دولية في التخصص نفسه، نظرًا إلى كفاءتها ونشاطها الواسع في هذا المجال، ألا وهي منظمة الطفولة الألمانية (A.S.E.D)، الأمر الذي جعل نجمها يلمع بين أوساط الشباب العربي في جامعة فرانكفورت بخاصة.

وبحلول صيف عام 1978 م، كانت فرصة "روث آلوتي" لإثبات مدى إخلاصها لقضيتها و إيمانها بها، إذ كان هذا الصيف شديد الحرارة نتيجة لحرارة التناحرات الأهلية الداخلية في لبنان، ولهذا انطلقت إلى بيروت حاملةً بعض الأموال والخطابات من منظمة الطفولة الألمانية إلى

مؤسسة (صامد) الفلسطينية ومنظمة الصليب الأحمر في بيروت، ثم قامت بجولات عديدة بين الملاجئ والمخيمات الفلسطينية والمراكز الاجتماعية لدراسة أوضاعها ونشاطها وظروفها المادية وما تحتاجه من معدات وأموال.

لم تمكث "آلوتي" في بيروت هذه المرة إلا أسبوعًا واحدًا، تعرفت فيه على المدينة، ووطدت عَلاقتها بالمراكز الاجتماعية، وتجولت بشوارع المدينة ومنها شارع مدام كوري في جولةٍ سياحيةٍ بالمدينة، ومن ثم سافرت إلى فسبادن حيث حصلت على معونات طبية للهلال الأحمر الفلسطيني من منظمة (A.S.E.D)، إضافةً إلى عدة آلاف من الماركات كتبرع، وعادت من جديد إلى بيروت لتقابل في هذه الزيارة السيد "فتحي عرفات"، الشقيق الأصغر

لـ"ياسر عرفات" ورئيس مؤسسة (صامد)، وكذا رئيس الهلال الأحمر الفلسطيني. وقد سُرَّ الأخير كثيرًا مما رآه من حماسٍ ونشاطٍ لافتٍ للفتاة الإنجليزية تجاه القضية الفلسطينية.

ونظرًا إلى هذا النشاط اللافت للانتباه الذي تفعله الفتاة الإنجليزية، كان من الطبيعي أن يعمل جهاز المخابرات الفلسطيني تحرياته عنها، وقد جاءت التقارير الأمنية تبرئ ساحة الفتاة من أي شكوك، وإن كانت أوصَت بمتابعة تحركاتها في بيروت لمعرفة كل جديد عن نشاطها وتحركاتها في بيروت للاحتراز ليس إلا، وهو إجراء روتيني يتم عمله مع أي شخص أجنبي.

وبعد هذه الزيارة، توالت زيارات "روث آلوتي" إلى بيروت مرة تلو الأخرى إلى أن وصلت إلى الزيارة السابعة التي كانت تحديدًا في شهر سبتمبر من العام نفسه، إذ وصلت ومعها خطاب تفويض من منظمة (A.S.E.D) بعمل فرع لها في بيروت تديره هي، إذ تنصَبُّ اهتماماتُه بصفة خاصة على الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة والأيتام وضحايا الحروب.

ولهذا كان عليها البحث عن مقر لمنظمة الطفولة، وكانت لدى "روث آلوتي" مواصفات خاصة للمقر، فهي كانت تبحث عن شقة علوية جيدة التهوية، ولا تخرج عن نطاق شارع لبنان ضمن مجموعة عمارات سكنية متجاورة، وذلك للبُعد عن الإزعاج وعوادم السيارات بالشوارع من ناحية، ومن ناحية أخرى لإشباع هوايتها في أوقات

فراغها، إذ كانت تهوى متابعة المظاهر الفلكية والأجرام السماوية، لأن مقر المنظمة سيكون في الوقت نفسه هو مقر سكنها المؤقت إلى أن تجدَ لها مقرَّ سكنٍ دائم.

وفي أكتوبر من العام نفسه، عثرت "آلوتي" على الشقة التي تحمل مواصفاتها، وأمضت التعاقد بصفتها ممثلة منظمة الطفولة الألمانية، وعلَّقت اللافتة النحاسية بجوار الشقة. وعلى مهلٍ، بدأت في تجهيز أثاث الشقة الذي كان من ضمنِ قطَعه تليسكوب قوي مكوَّن من عدة وصلات لإشباع هوايتها في متابعة الأجرام الفلكية.

وقد استمر الوضع على هذه الحال حتى إجازة رأس السنة الميلادية، التي كان لزامًا على "آلوتي" أن تقضيها مع عائلتها في إنجلترا، إذ ذهبت إليهم وقضت الإجازة معهم في



جوٍّ يسوده المرح، ومن ثم عادت مرة أخرى إلى بيروت في شهر يناير.

وفي شهر يناير، وتحديدًا في اليوم الثاني والعشرين وفي الساعة الرابعة عصرًا، شهد شارع البقاع المتفرع من شارع لبنان انفجارًا مدويًا خلَّف سبعة عشر قتيلًا، وأدَّى إلى إصابة العشرات، وكان من ضمن القتلى الأمير الأحمر "علي حسن سلامة"، الشخص الذي أذاق دولة الاحتلال الويلات تلو الويلات.

ولكن كيف تمكن الصهاينة من قتل هذا الشبح الذي استعصى عليهم لعدة سنوات؟

(16)

إيريكا تشامبرز

الحقيقة، إن "روث آلوتي" مندوبة منظمة الطفولة الألمانية (A.S.E.D) لم تكن إلا عميلةً للموساد تُدعى "إيريكا تشامبرز". وقد وُلدت إيريكا لأسرة يهودية في فبراير عام 1948 م في "Portsmouth" أقصى جنوب إنجلترا، ثم انتقلت مع والديها للإقامة في لندن حيث أكملت دراستها حتى التحقت بالجامعة، ونالت البكالوريوس في النباتات والجغرافيا، لتسافر بعد ذلك إلى أستراليا لدراسة جغرافيتها الجافة سعيًا منها إلى إكمال دراستها العليا، والحصول على درجة الدكتوراه،



إلا أنه سرعان ما حصلت على فرصة لإكمال أبحاثها في الجامعة العبرية في القدس.

حتى تلك اللحظة، لم يكن لـ"إيريكا" أي ميول سياسية أو توجهات محددة. وفي أغسطس وسط ضجيج إعلامي دولي عن دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ، غادرت "إيريكا" أستراليا متجهةً نحو إسرائيل لإكمال دراستها العليا، لتعاصر هناك تفاصيل عملية ميونخ التي انتهت باستشهاد خمسة من منفذي العملية، ومقتل أحد عشر رياضيًّا، لتبدأ في التساؤل: لماذا هذا الصراع الدموي بين العرب وإسرائيل؟

ومنذ تلك اللحظة، بدأت "إيريكا" تتجه بفكرها واهتماماتها إلى السياسة، وتقرأ كثيرًا عن مشكلة اليهود



منذ البداية، وخطوات تأسيس إسرائيل، وكذا الحروب التي خاضتها مع العرب للمحافظة على أمنها واستقرارها (كما قيل لها)، الأمر الذي شكَّلَ لديها ثقافة الكراهية المُزمِنة للعرب. ومن هنا، تصيَّدَها عملاء الموساد لضمِّها إلى أكاديمية الموساد، إذ كانت "إيريكا" تتميز بكل المواصفات المطلوبة لعميلة الموساد المثالية، كالجرأة والذكاء وسرعة البديهة والإخلاص في العمل.

إلا أنه كانت توجد مشكلة قديمة ما تزال تؤرقها، ففي سن الخامسة عشرة، وفي خلال خروجها في رحلة مدرسية إلى إحدى مدن الشمال البريطاني، شجعتها زميلة لها على الخروج مساءً لمشاهدة أحد أفلام السينما، وعند عودتهما لاحقهما شابان، فهربت صديقتها تاركة إياها لمصيرها المحتوم معهما، وفي إحدى الغابات وتحت تهديد

السلاح، تناوب الشابان اغتصابها عدة مرات إلى أن هربت منهما، واختبأت بين الأشجار عاريةً حتى أشرق النهار، ليعثر عليها رجل عجوز كان يتريض فيما كانت هي بين الحياة والموت. وقد شكل هذا الحادث لدى الفتاة كراهيةً للجنس ونفورًا مرضيًّا وحالة انقباض حادٍّ عند محاولة ممارسته، مما دفعها إلى أن تبحث عن صور الجنس المثالي في عالم الخيال فقط.

وهذا بالطبع أمر يتعارض كلية مع مبادئ الموساد، الذي دومًا ما اعتبر الجنس بالنسبة إليه هدفًا وليس غريزة، عمل مقدس ومشروع الهدف منه هو الحفاظ على صالح إسرائيل وأمن الشعب اليهودي، لتحصد بذلك فتيات الموساد بكل جدارة واستحقاق لقب الداعرات الشريفات!

وكان من الطبيعي أن تنضم "إيريكا" إلى طابور هؤلاء الداعرات، لذا تم إخضاعها لعلاج نفسي صاحبته تمرينات عملية لفك حالة الانقباض، وتخلصت "إيريكا" على إثره شيئًا فشيئًا من مخاوفها وعقدها النفسية.

ولضمان نجاح العلاج النفسي، تم إنشاء علاقة خاصة بينها وبين أحد المتدربين في أكاديمية الموساد، وقد كانت تلك العلاقة الجنسية تحت الملاحظة، وإن كانت بعيدة عن المراقبة، إذ كان يُطلَب من كلٍّ منهما كتابة ملاحظاته إثر كل لقاء عما استجد بينهما، وذلك للخروج بنتيجة مُرضِية عن عميلة الموساد الجديدة، التي قد يُطلَب منها مُستقبلًا مُضاجَعة من يُراد تجنيده خارج إسرائيل.



في الوقت نفسه، لكن في بيروت، كان الأمير الأحمر قد تحول بصورة كاملة من مناضل مخضرم إلى سياسي جاد، فمقابلاته الصحفية وآراؤه لم تعد تنم عن شعوره بالكراهية كما كانت من قبل، بقدر ما باتت تعبِّر عن الإرادة في التغيير والإدراك الكامل لمكامِن القوة والضعف في شعبه، مما جعل كثيرًا من المر اقبين يتوقعون مستقبلًا عظيمًا لمنظمة التحرير الفلسطينية على يديه.

وقد بدا ذلك واضحًا في حوارٍله مع "نادية ستيفان" محررة جريدة "موندي مورننغ" التي تصدر في بيروت.

وكان مما ورد فيه:

الأمير الأحمر: في المرحلة الأولى من كفاح آبائنا، خرجت قياداتنا من الأرض، وفي يومنا هذا فإننا نناضل من خارج

بلادنا، وذلك لأن الظروف تجبرنا على أن يكون مركز قيادة ثورتنا موجودًا خارج البلاد.

"نادية ستيفان": لكن، ألا ترون أنه بقدومكم إلى لبنان ربما تكونون سببًا في احتمالية اشتعال حرب أهلية هنا؟

الأمير الأحمر: إن الجهل هو ما يخلق العداوة، وكثير من أهالي بيروت الشرقية لا بد من إقناعهم بذلك وأن هذا سوف يشكل تهديدًا لهم (يقصد الجهل)، ومن ثم فإننا نجدهم دائمًا في موضع دفاعي، فهم يعتقدون أننا نريد الاستيلاء على لبنان. لذا، يجب علينا أن نوضح أننا نحب لبنان، و أننا ما نحارب إلا دفاعًا عنها. ولكن إذا ما كنا قد أصبحنا بوهيميين وليس لدينا فرصة تسمح لنا بالخروج للوصول إلى تهدئة أو لإنهاء القتال، فإنه من المناسب لنا

أن نتفرَّغ للدفاع عن النفس، وذلك على الرغم من أننا

نعلَم أن الحوار وحده هو المهم.

"نادية ستيفان": أفهم من حديثكَ أنه لا يوجد حل في

الأفق القريب لهذه الأزمة التي نعيشها؟

الأمير الأحمر: عندما لا تصل الأطراف المتناحِرَة إلى

اتفاق، فإنه لن يكون بإمكانهم البناء على أساس جديد.

إن لبنان ملك لجميع اللبنانيين، لذا يجب أن نتحلى

بقناع الحب والعاطفة والشعر والجمال؛ كل إنسان يحب

أن يرى لبنان جميلة، فلنتفق أولًا حتى نعيد البناء ثانيًا.

وبمجرد انتهاء الحوار، توجَّه وسط حراسته إلى الكورال

بيتش للاستجمام كعادته، إلا أنه في أثناء وجوده هناك

اصطدم بإحدى الحوريات اللاتي يعشن على سطح

الأرض. حسناء تملك شعرًا بنيًّا مسترسلًا وعينين خضراوين، ما يزيدها جمالًا وحُسنًا وبهاء. إنها اللبنانية ذات الواحد والعشرين عامًا، التي دائمًا ما أذابت قلوب عشرات الرجال بنظراتها الساحرة، ملكة جمال الكون "جورجينا رزق".

ليقع الطرفان بعضهما في حب بعض من أول نظرة، وتتكرر اللقاءات بينهما عدة مرات حتى بات كلا الطرفين لا يقوى على فراق الآخر، مما جعلهما بعد عدة أشهر يعلنان ارتباطهما وزواجهما بصفة رسمية.

والآن دعونا نعود مرة أخرى إلى أكاديمية الموساد. فبعد تدريبات شاقة شملت كلَّ فنون التجسس، وبعد أن تأكد قادة الموساد من أن عميلتَهم الشابة باتت مستعدَّةً لتولِّي

المهمات خارج البلاد، أخبروها أنه قد تم اختيارها لتنفيذ

مهمة اغتيال الأمير الأحمر "علي حسن سلامة".

وبالفعل بمجرد إبلاغها بالمهمة المنتظرة، بدأت "إيريكا"

بدراسة كل الملفات الخاصة بالزعيم الفلسطيني،

وتصفح الصور الحديثة كافة التي التقطت له في ألبوم

ملحق بالملف، لتغوص من خلالها في دراسة تفاصيل

وجهه المرحة.

وكانت كلما تعمقت في دراسة ملف الأمير الأحمر، تتذكر

دائمًا ما أخبرها به رؤساؤها، وعلى رأسهم "مايك هاراري"

عن ذلك الشخص: هم لم يسبق لهم قط التعامل مع

عدوٍّ مثله، فهو ليس مثل هؤلاء العرب القادمين من

البلاد الثرية ذوي الكروش الضخمة واللِّحى الكثة، و إنما

كان متوهجًا وماكرًا، لا يثير الشك، مدركًا لأغراضه. وعلى الرغم من كونه قاسيًا، فقد كان فطنًا وذا كاريزما ساحرة تجذب الجميع إليه، وله القدرة على أن يلف أجمل نساء الدنيا حول إصبعه في ثوانٍ، ولذلك لم يكن شيئًا مستغربًا بالنسبة إليها أن ينجح شخصٌ يملك مثل تلك الصفات في أسر قلب ملكة جمال الكون، إذ نظرة واحدة منها قادرة على إذابة مئاتٍ من قلوب أعتى الرجال.

وبمجرد انتهاء العميلة من هَضْم كل ما ورد في الملف وإتقان كل ما تعلمته في أكاديمية الموساد، غادرت إسرائيل متجهة نحو فسبادن الواقعة في شرق ألمانيا للدراسة، ضمن منحة دراسية مدتها خمس سنوات لدراسة الفلسفة في جامعة فرانكفورت، وذلك بعد زيارةٍ سريعةٍ إلى إنجلترا، استخرجت في خلالها جوازَ سفرٍ



جديدًا، لا يحمل تأشيرة إسرائيل، لتبدأ هناك أولى

خطوات عملية "لخيم زار".

(17)

لخيم زار

لم يكن اختيار مدينة فسبادن لإقامة "إيريكا" في ألمانيا من قبيل الصدفة، بل كان اختيارًا محسوبًا بدقة، فتلك المدينة تقع في مثلث مهم يضم مدن (فرانكفورت – بون – درامستات – مانهايم)، وهي المدن التي دائمًا ما كان يفضلها العرب للإقامة في ألمانيا، ومِن ضمنهم بطبيعة الحال مئات من الفلسطينيين.

وبمجرد وصولها إلى فسبادن، بدأت "إيريكا" البحث عن شقة صغيرة تقليدية، شأنها في ذلك شأن الآلاف من الطلبة المغتربين، وبمجرد استقرارها بدأت عميلة الموساد الشابة البحث عن مكاتب منظمات رعاية الطفولة

الواقعة في فسبادن والمدن المحيطة بها، إلى أن نجحت في

الحصول على عضوية إحدى الجمعيات المحلية التي

أهلتها للحصول على عضوية منظمة الطفولة الدولية

(A.S.E.D).

في خلال تلك المدة، كانت التعليمات لها واضحة

ومشددة، إذ كان ممنوعًا عليها منعًا باتًّا ممارسة أي

نشاط تجسسي عن قصد قد يضعها في بؤرة الشك،

وكذا مُنِعت من السعي إلى عقد أي صداقات مع الشباب

العرب داخل جامعة فرانكفورت أو خارجها، وأن تترك

هذا الأمر تحديدًا للصدفة البحتة إن توفرت.

وفي صيف 1978 م، وبعد طول انتظار، صدرت

التعليمات لـ"إريكا" بالسفر إلى بيروت، فتحركت عميلة



الموساد الشابة حاملةً معها بعض الأموال والخطابات من منظمة الطفولة الألمانية لمؤسسة "صامد" الفلسطينية والصليب الأحمر في بيروت، اللتين كان يرأسهما آنذاك "فتحي عرفات"، الشقيق الأصغر للقائد "ياسر عرفات".

وفي أثناء وجودها في لبنان، أجرت عدة جولات بين الملاجئ والمخيمات الفلسطينية والمراكز الاجتماعية، بحجة دراسة أوضاعها ونشاطاتها وظروفها المادية وما تحتاج إليه من معدات ونفقات. وبعد أن انتهت من جولاتها في المراكز الفلسطينية والاجتماعية ووطدت علاقاتها بها، تجولت بالقرب من شارع مدام كوري، حيث أقام الأمير الأحمر مع زوجته الثانية، لترسم صورة المنطقة في رأسها، وتعود إلى فسبادن مرة أخرى.

وكان من الطبيعي بعد ذلك الاهتمام الزائد من الفتاة البريطانية الشابة بالأطفال الفلسطينيين والأيتام في لبنان، أن يتحرى الأمن الفلسطيني عنها بصورة دقيقة لتتم تبرئة ساحتها في النهاية من أي شكوك.

وتمر الأيام والأشهر، وتتعدد زيارات عميلة الموساد إلى البنان، حتى حان موعد الزيارة السابعة التي بحثت فيها عن شقة تكون مقرًّا وهميًّا لمنظمة الطفولة، وبعد شهر كامل من البحث عثرت "إيريكا تشامبرز" على ضالتها، إذ كانت تبحث عن شقة ذات مواصفات خاصة، شقة علوية جيدة التهوية، لا تخرج عن نطاق شارع لبنان ضمن مجموعة عمارات عالية متجاورة، وذلك حتى تستطيع مراقبة سكن "علي حسن سلامة" من أعلى دون أن يلاحظ ذلك أحد.

وعلى مهل بدأت في تجهيز أثاث الشقة، وكان من ضمن قطع ذلك الأثاث تليسكوب قوي ذو عدة وصلات، وكانت حجة وجوده جاهزة، ألا وهي مراقبة الأجرام السماوية، لكنه كان في الحقيقة لمراقبة شبح على الأرض يُدعى "علي حسن سلامة". ولمدة ثلاثة أشهر كاملة دون انقطاع، ست عشرة ساعة يوميًّا، ظلت "تشامبرز" عاكفة خلف التليسكوب لتحديد أفضل مسار يمكن اصطياد الهدف فيه.

والحق يقال، إن الأمير الأحمر في تلك المدة كان قد قدَّم إلى الموساد خدمة العمر، فمنذ أن تزوج "جورجينا رزق"، وقد هجر حياة التنقل والترحال لينعم في حياة الثبات والاستقرار، وبذلك بات لدى مَن لا مكانَ له، مكانٌ يسهل الاستدلال عليه ليصبح يومه مقسمًا بين ممارسة رياضة

السباحة والكاراتيه في الصباح، وبعد الظهر إمَّا في مكتبه في حي الفكهاني، وإمَّا في زيارة لوالدته أو أسرة زوجته الجديدة أو زوجته الأولى و أبنائه منها، وفي المساء كان يصطحب زوجته الثانية لارتياد أحد الأندية أو المطاعم أو الفنادق الواقعة في بيروت الساحرة بصحبةِ حراسةٍ خفيفة، الأمر الذي جعله يصبح هدفًا أسهل في الاصطياد أكثر من ذي قبل.

وعلاوة على ذلك، ففي المدة الأخيرة من حياته، كان تفكيره في الموت المبكر مسيطرًا عليه بصورة كبيرة، ما جعله يتساهل في مسألة التأمين الشخصية، شأنه في ذلك شأن القادة الثلاثة الذين اغتيلوا في عملية نبع الشباب.

وكلما تحدث معه أحدٌ من أصدقائه ناصحًا إياه بأن يُشدِّد التأمين حوله، كان يرد عليه قائلًا: إنني أعلم جيدًا أنني سوف أموت، سأُقتَل، سأسقط فجأة في إحدى المعارك ولن يستطيع أحدٌ كائنًا من كان أن يؤخِّر أو يقدِّم أجلي للحظة واحدة، لكن عندما أموت يجب على أولادي مواصلة النضال من بعدي، تمامًا مثل أبيهم وجَدِّهم، وألا يكون مجالٌ للحزن، فإني أكره الأحزان، لأنها لا تعني إلا الخمول والشعور باليأس.

وفي أحد الأيام، وفيما كانت زوجته تشعر بالقلق والتوتر على حياته كلما نظرت من الشرفة إلى العمارات التي تحيط بهم، سألته قائلة: لماذا لا نغير هذا السكن؟ ألا تعرف طبيعة عملك وما يمثله من خطر جسيم على حياتك؟

إلا أنه بكل هدوءٍ ردَّ عليها قائلًا: يا دُرة القلب، إن الرب واحد والعمر واحد، وإذا ما كتب لي الموت في لحظة ما، فلن يستطيع كائن من كان تقديمها أو تأخيرها.

"جورجينا رزق"، وما زال يتملكها القلق: حسنًا، لا نغير السكن، لكن على الأقل مُرْحرسك أن يتحروا عن سكان العمارات المجاورة لضمان أمنك.

حينها ضحك "سلامة" مقهقهًا: حبيبتي، إنه من الأولى أن أترك أنا هذه الشقة وأغادر إلى مكان آمن، لا أن أثير حنق جيراني و أقتحم عليهم خصوصياتهم.

وقد استمرَّ الأمرُ على تلك الحال حتى ليلة رأس السنة، التي قضتها "تشامبرز" في بريطانيا وسط أهلها، وهناك وبطريقة سرية للغاية، التقت "إيريكا" بأحد ضباط

الموساد، الذي شرح لها كيفية الالتقاء بعميلين سوف يزوران بيروت في خلال أيام. وقتها أدركت "إيريكا" أن العد التنازلي للتنفيذ قد بدأ، وما هي إلا مسألة وقت حتى يتم قتل الأمير الأحمر، لتعود مرة أخرى إلى بيروت لممارسة عملها المعتاد في مر اقبته.

وفي السابع عشر من يناير، وقبل أن تدق الساعة الثانية عشرة ظهرًا، هبط على أرض مطار بيروت الدولي عميل الموساد الإنجليزي الأصل "بيتر سكر ايفر" البالغ من العمر أربعين عامًا، وقد كان "بيتر" نموذجًا للرجل الإنجليزي التقليدي، إذ كان نحيفًا على الرغم من أن مظهره يدل على أنه صاحب تدريب جسدي عالٍ، مرتديًا بذلة رمادية اللون ونظارة شمس سوداء.

توجه "بيتر" بكل هدوء إلى موظف الجوازات الذي بعد أن تصفح جوازسفره نظر إليه ليسأله السؤال التقليدي: ما هو الغرض من الزيارة؟

فردَّ عليه "بيتر"، والابتسامة تعلو وجهه في كلمات مقتضبة: السياحة والتجارة.

ليأخذ بعدها جوازَسفره، ويستقل سيارة أجرة نقلته إلى فندق "رويال جاردن هوتيل"، وهناك التقى بالكندي "رونالد كولبرج"، وهو شاب في منتصف العشرينيات، نحيف هو الآخر مثل "سكر ايفر"، إلا أن وجهه مستدير وشعره كستنائي اللون.

وفي صباح اليوم التالي، توجه سكر ايفر إلى شركة "ليبانون كار/ Lebanon car" لتأجير سيارة من طراز

"فولكس فاجن غولف"، وهناك تقابل -بالصدفة- مرة أخرى مع "رونالد كولبرج" الذي كان يحجز سيارة له هو الآخر، إلا أنها كانت من طراز "سيمكا". وبعد أن تبادل الثنائي التحية وبعض الجمل، افترقا مرة أخرى لينطلق كلٌّ منهما بسيارته في أنحاء بيروت.

في إسرائيل، كان الوضع مختلفًا، فالأجواء كانت مشتعلة داخل الموساد لوضع آخر لمسات عملية "لخيم زار"، فلا إجازات ولا راحة لأحد، حتى يوم السبت الذي يُعتَبر إجازة مقدسة عند اليهود، كان الجميع يعمل فيه بالطاقة القصوى لإنهاء أعمالهم في الوقت المناسب.

ولضمان سير العمل، توجَّه "هاراري" بنفسه إلى معامل الموساد للتأكد من إنهاء خبراء المفرقعات شحنة المواد



المتفجرة التي تزن خمسة عشر كيلوجرامًا من مادة (T.N.T) الشديدة الانفجار.

وفي مساء الأحد الموافق 21 يناير، انطلقت ثلاثة قوارب صواريخ سريعة من ميناء حيفا، على متن أحدها "مايك هاراري" بنفسه. وقبل بزوغ الفجر، وبينما كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا، توقفت الزوارق الثلاثة قبالة ميناء جونيه الواقع شمال بيروت، الذي كان تحت سيطرة الكتائبيين أصدقاء إسرائيل في لبنان، وبعد أن تأكدوا من وجود كلٍّ من "سكر ايفر" و"كولبرج" على رصيف الميناء، أُنزِل قارب مطاطي من أحد الزوارق حاملًا الشحنة المتفجرة مع جهاز تفجير عن بُعد لتسليمها إلى كِلا العميلين، إذ أخذاها ووضعاها أسفل المقعدين الأمامي والخلفي للسيارة الفولكس فاجن التي انطلقا بها

ليركناها أمام منزل "إيريكا تشامبرز"، هذا بالطبع بعد أن سلماها جهاز التفجير عن بعد.

في الوقت نفسه، كان القارب المطاطي قد عاد أدراجه إلى السفينة الأم لتغادر الزوارق الثلاثة المياه الإقليمية اللبنانية، ويظل الجميع في حالة ترقب.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ الأمير الأحمر ليمارس يومه بصورة عادية ما بين الرياضة والعمل، ولم يكن مانعٌ بالطبع من أن تتخلل المدة الصباحية بعض التحذيرات من الأصدقاء المقرَّبين له بأن خططًا ما تُحضَّر لاغتياله، و أنه عليه أن يكون حريصًا أكثر في مسألة أمنه الشخصي، لكنه كالعادة رمى بتلك التحذيرات عرض الحائط. وبعد أن أنهى عمله توجه إلى منزله عصرًا لإعداد

نفسه للسفر إلى دمشق، حيث ستُعقد الدورة الرابعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني. لكن قبل ذلك كان عليه أن يمرَّ على منزل والدته الواقع في غرب بيروت، إذ كان في انتظاره أفراد أسرته جميعهم، وذلك للاحتفال بعيد ميلاد أصغر أعضائها سنًّا، "جهاد" ابنة أخته الصغيرة المدللة "نضال".

وقبل أن يودع زوجته "جورجينا"، ظل يمزح معها واضعًا يده لمدة قصيرة على بطنها الحامل في الشهر الخامس، وبعد أن أطال النظر إليها قليلًا، قال لها: ستكون فتاة. إلا أنها سرعان ما ردت عليه غاضبة: كلَّا، إنني لم أتحمل كل هذا إلا من أجل أن يكون صبيًّا، فإني أريد أن يكون لديَّ "علي" صغير.

فابتسم لها قائلًا: لكني أريد طفلة صغيرة تكون في مثل جمالك.

ثم قبَّلها قُبلة حانية من جبينها، لينطلق بعدها باتجاه سيارته الشيفروليه آخذًا مكانه بجوار رفيق سفره السائق "جميل"، في حين يرافقه ثمانية أفراد من القوة سبعة عشر، ثلاثة في المقعد الخلفي في سيارته الشيفروليه المضادة للرصاص، وخمسة آخرون في سيارة ماركة لاند روفرتر افقه، لتنطلق السيارتان من أمام منزله في تمام الثالثة وخمس وأربعين دقيقة عصرًا.

وبينما كانت السيارتان تسيران في شارع البقاع، كانت "إيريكا تشامبرز" جالسة أمام نافذتها تراقب تحركات السيارة الشيفروليه الجالس فيها عدو إسرائيل رقم



واحد، ماسكة جهاز الإرسال بإحدى يديها، وقابضةً عليه

بكل قوتها. وبعين فاحصة، باتت تقدر المسافة التي

تفصلها عن السيارة الفولكس فاجن.

مئة متر... خمسون مترًا... ثلاثون مترًا... عشرون مترًا... إلى

أن صارت السيارتان متلاصقتين.

في تلك اللحظة وبسرعة لا إدراكية، قوَّسَت "إيريكا"

إصبعها على جهاز الإرسال بكل قوتها، وفي خلال جزء من

الثانية، هزت المتفجرات القوية الحي بالكامل، واشتعل

الشارع، وتطايرت السيارات والجثث ممزقةً في الهواء،

وبدا المكان كما لو كانت به معركة حربية.

وبمجرد سماع زوجة الأمير الأحمر صوتَ الانفجار،

اتجهت على الفور إلى شرفة منزلها في خطًى متثاقلةٍ

متمنية من الله أن يخيب ظنها، إلا أنها ما إن رأت سحب الدخان و آثار الانفجار وسيارات الإسعاف التي ملأت المنطقة، حتى صرخت في حالة هستيرية من البكاء قائلة:

لقد قتلوك يا حبيبين لقد فعلوها معك!

كان "ياسر عرفات" في اجتماع مهم بفندق ميريديان في دمشق وقت أن وصله خبر استشهاد الأمير الأحمر، فانفرد بمستشاريه وحراسه، ثم أُصدِر بيانٌ من منظمة التحرير الفلسطينية تتوعَّد فيه بالانتقام من القتلة أينما كانوا.

وفي اليوم التالي، خرج خمسون ألفًا من الفلسطينيين واللبنانيين لتوديع "علي حسن سلامة"، الابن والأخ والصديق والمناضل، والقائد والسياسي والزوج والأب والعاشق. في ذلك اليوم، خرج كل شخص من هؤلاء

لتوديع صفة ما عرفها بهذا الشخص الذي دومًا ما أحاط نفسَه بهالةٍ من الغموض في خلال مشوار حياته. وفي مقابر منظمة التحرير، احتشد الجميع لوضع الأمير الأحمر في مثواه الأخير، وسط إطلاق النيران وعلو التكبيرات، في مشهدٍ قلما يتكرر إلا مع عظام القادة.

وقد تصدَّر المُشيِّعين الزعيمُ "ياسر عرفات"، وبجواره "أم حسن" زوجة الأمير الأحمر الأولى، وفي الجانب الآخر للزعيم "ياسر عرفات" كان يسير "حسن" الابن الأكبر للأمير الأحمر مرتديًا ملابس الفدائيين، وتتدلى الكوفية من على كتفه، ماسكًا بيده الكلاشينكوف، فيما تشع نظراته بالتحدي. وعلى الرغم من كونه قد فقد أباه للتو، فإنه لم يبكِ انهيارًا لحظةً واحدةً في أثناء توديعه، كأن لسان حاله يقول للصهاينة: اقتلوا من أردتم من

قادة المقاومة، بل اقتلوهم جميعًا إذا أردتم، فكل جيل يُسلِّم الآخر، والمقاومة في دماء كل مواطن شريف يغار على عِرضه وأرضه، ولا مكان لكم على أرض فلسطين.

وإذا أراد أحدٌ منكم البقاءَ فيها فليبقَ، لكن سيكون داخل مقابرها، وليس فوق أرضها الطاهرة.



تمت بحمد الله

أحمد الجيلاني

للتواصل مع الكاتب

الحساب الشخصى على الفيسبوك:

https://www.facebook.com/Ahmed.A.E15

الصفحة الرسمية على الفيسبوك:

https://www.facebook.com/ahmedalgelany11

Instagram: ahmad_algilani

WhatsApp: 002-01281986530

Telegram: 002-01281986530

Twitter: https://twitter.com/ahmad_algilani2